الفصل الرابع

هيئة تحرير ليبيا

(٢) زعامة بشير السعداوى

تمهيد:

تأسست هيئة تحرير ليبيا، قبل كل شيء نتيجة لإخفاق الجهود التى بذلت سواء فى القاهرة أم فى بنغازى لحسم أسباب الخلاف بين البقاويين وإخوانهم الطابلسيين، ولجمع كلمة الأمة على المطالبة بوحدة ليبيا واستقلالها تحت إمارة السيد محمد إدريس السنوسى.

وكان من الواضح أثناء المفاوضات التى جرت فى القاهرة فى صيف ١٩٤٦ بين مندوبى الجبهة الوطنية المتحدة الطرابلسية وبين الجانب البقاوى (تحت إشراف الأمير)، وتلك التى جرت فى بنغازى بعد ذلك فى يناير من العام التالى بين وفد الجبهة الوطنية المتحدة الطرابلسية كذلك وبين اللجنة الوطنية البرقاوية - (وتحت إشراف الأمير أو توجيهه دائمًا) - كان من الواضح أن إمارة السيد محمد إدريس السنوسى ذاتها لم تكن موضع خلاف، وأن كل ما كان يريده الطرابلسيون تنظيم مسألة الوراثة من جهة، وتنظيم قواعد الحكم فى الدولة الجديدة المنتظرة على أسس ديمقراطية صحيحة من جهة أخرى. ثم كان من الواضح أن سبب تعذ الاتفاق كان إيثار البرقاويين لإنشاء الإمارة السنوسية في برقة على وحدة ليبيا واستقلالها إذا تبين أن الوحدة والاستقلال صعبًا المنال، فتمسكوا - لذلك - بقاعدة "إنقاذ ما يمكن إنقاذه"، بينما طلب الطرابلسيون أن يتآزر الليبيون جميعهم فى العمل من أحل وحدة البلاد بأسرها واستقلالها، وتمسكوا بدورهم بأن تجتمع كلمة الأمة عى هذين المطلبين المحددين: الوحدة والاستقلال. ولم يكن مبعث إيثارهم توحيد الجهود فى هذا السبيل محاولة التخلص من البيعة التى للسيد محمد إدريس السنوسى فى أعناقهم منذ ربع قرن (١٩٢٢) ولكن إبطال مساعى أولئك الذين يريدون أن

يتخذوا من مسألة الإمارة السنوسية فى حدذاتها وسيلة لتمزيق وحدة البلاد والقضاء على كل أمل فى إمكان تحريرها واستقلالها. ولقد كان لإخفاق مفاوضات بنغازى رد فعل كبير فى دوائر الطرابلسيين المشتغلين بالقضية الوطنية فى القاهرة وطرابلس معًا. ودار تفكير القادة المسئولين حول الاختيار بين أحد أمرين: نبذ "التمسك بمبدأ إمارة السيد إدريس (والاقتصار على) هذه المبادئ: اسقلال ليبيا بحدودها الطبيعية قبل الحرب العالمية الثانية، والانضمام بعد الاسقلال لجامعة الدول العربية، وذلك على حد ما جاء فى (تقرير الجبهة الوطنية المتحدة إلى بشير السعداوى عن مفاوضات بنغازى) - أى الاقصار على المطالبة بالاسقلال والوحدة؛ أو الاستمرار على التمسك بإمارة السيد محمد إدريس، بالرغم من كل ما حدث، على اعتبار أن التمسك بالوحدة ضرورى، وأن هذه الوحدة لا يمكن قيامها بدون برقة منبت الإمارة السنوسية. وكان وقتئذ أن عقدت فى ١٠ فبراير سنة ١٩٤٧ معاهدة الصلح مع إيطاليا، وصار ضرويًا للتهيؤ لمقابلة لجان التحقيق الذى صار متوقعًا إرسالها إلى مستعمرات إيطاليا السابقة لاستفتاء أهلها فى مصيرهم، بمطالب محددة، فتأسست هيئة تحرير ليبيا.

ولقد ذكرنا فى ختام الفصل السابق أن مهمة هذه الهيئة إلى جانب معالجة القضية الوطنية فى ميدان العلاقات الدولية، كانت محاولة التوفيق بين مختلف وجهات نظر الليبيين أنفسهم حول مسألة الإمارة، على أساس أن المطالبة بالوحدة والاستقلال، تستبع حتمًا المناداة بإمارة السيد محمد إدريس السنوسى على ليبيا الموحدة المستقلة. ولقد كانت الفكرة الظاهرة لدى أمين عام الجامعة العربية وقتئذ السيد عبد الرحمن عزام عندما أذاع نبأ تأسيس هيئة تحرير ليبيا فى نداء موجه: "من عبد الرحمن عزام باشا إلى الشعب الليبى وهيئاته السياسية". أن الغرض الأصيل من تأسيس هذه الهيئة أن تستطيع إزالة أسباب الخلاف بين الأحزاب السياسية فى طرابلس الغرب. وأن تجتمع كلمة الطرابلسيين أمام لجان التحقيق المنتظرة حول مطلبى الوحدة والاستقلال.

ويبدو - وقتئذ - أن السيد عبد الرحمن عزام كان يعتقد أن الطرابلسيين إذا اتفقت كلمة أحزابهم على التمسك بالاستقلال والوحدة، استطاعوا أن يظفروا بهما من غير حاجة إلى اتفاق البرقاويين معهم على هذين المطلبين؛ وربما لأن الطرابلسيين يؤلفون أكثر سكان ليبيا، أو ربما أن البرقاويين إزاء هذا الإجتماع من جانب إخوانهم الطرابلسيين قد يرضون بإرجاء مسألة صورة الحكم والبحث فى أصوله وقواعده إلى ما بعد صدور قرار الدول الموقعة على معاهدة الصلح مع إيطاليا، أو الهيئات التى سوف يكون لها بمقتضى هذه المعاهدة الحق فى تقرير مصير مستعمرات إيطاليا الإفريقية السابقة، بوحدة ليبيا واستقلالها. لقد ظهر الغرض الأصيل من تأسيس هيئة تحرير ليبيا، والاعتبارات التى ذكرناها فى البيان الذى أصدرته الهيئة عن أغراضها فأنبتناه فى الفصل السابق، حيث جاء فيه أن من هذه الأغراض. "اجتناب كل دواعى الجدل والشقاق والخلاف على نظام الحكم وطرائفة، وأن يبحث كل ذلك ممثلوا الشعب بعد الاستقلال للصالح العام، والمحافظة على وحدة الكلمة أثناء الكفاح للحرية".

ويعتبر تأسيس هيئة تحرير ليبيا نقطة تحول فى الكفاح من أجل وحدة ليبيا واستقلالها ولعل من أهم أسباب ذلك أن رئاسة هذه الهيئة قد أسندت إلى بشير السعداوى. فهو الزعيم الذى شهد جميع مراحل الكفاح من أجل تحرير ليبيا وخلاصها، منذ أن غزا الطليان البلاد فى عام ١٩١١؛ وكانت له جهود معترف بها أثناء الجهاد فى داخل البلاد، وأثناء النضال السياسى وهو بالمهجر، وفوق هذا كله، فالسعداوى هو صاحب البيعة الطرابلسية الأولى (فى عام ١٩٢٢) للسيد محمد إدريس السنوسى بالإمارة على ليبيا بأسرها، وينظر إلى إمارة السيد محمد إديس كشرط ضرورى لإنشاء الوحدة، ولذلك فهو لا يعتبر إرجاء البحث فى "نظام الحكم وطرائفه" إلى ما بعد الحصول على الاستقلال، وعلى خلاف ما يكون غيره قد فهم من مدلول ذلك، وسيلة لنبذ الإمارة ظهريًا، بل إن ما قصد إليه بشير السعداوى لم يكن سوى

"اجتناب كل دواعى الجدل والشقاق والخلاف، حقيقة "والمحافظة على وحدة الكلمة أثناء الكفاح للحرية" على أساس أن ضرورة الاعتراف بالإمارة موضوع مفروغ منه، وفى وسعه أن يجمع كلمة الفيقين على نظام من الحكم مؤسس على الإمارة بعد أن يتقرر أن البلاد أهل للاستقلال نهائيًا إذا استطاع هو أن يقنع بالتهادن الآن دعاة الإمارة "البرقاوية" وإخوانهم الطابلسيين الذين استرابوا فى نواياهم ولم يطمئنوا إلى جدوى التقرير بالإمارة على ليبيا الموحدة، طالما أن البرقاويين لا يريدون إلا "إنقاذ ما يمكن إنقاذه" فالتأمت بفضل ذلك صفوف الأمة فى أثناء الجهاد لنيل حقوقها، وهى المرحلة التى لزم فيها توحيد الكلمة فى مواجهة الدول الطامعة فى ليبيا والتى تريد تمزيق وحدتها وإهدار حرياتها. ولقد كان هذا اختلافًا جوهريًا فى تفسير الأهداف البعيدة التى قامت الهيئة فى واقع الأمر من أجل تحقيقها، لما كان مبعث تأسيس هذه الهيئة مباشرة هو ما ترتب على فشل مفاوضات بنغازى المعروفة من اتساع شقة الخلاف كما رأينا، ليس فقط بين البرقاويين والطرابلسيين، بل بين الطرابلسيين أنفسهم، وذلك بين وجهة نظر أولئك الذين حاربوا - لسبب أو لآخر - الإمارة السنوسية فى حد ذاتها، وكقاعدة استندت عليها محاولاتهم فى حل قضية ليبيا، وفى جميع مراحل هذه القضية، وبين وجهة نظر رئيس هيئة تحرير ليبيا.

واقتناع بشير السعداوى بأن ليبيا لن تصل إلى الاستقلال إلا إذا تمسك الليبيون قاطبة بالمطالبة به، وأن هذا الاستقلال لن يكون حقيقيًا إلا إذا سلمت وحدة البلاد، وتألف من الأقطار الثلاثة كيان لوطن واحد كان المبدأ الذى استرشد به فى كل أدوار حياته السياسية، والذى استطاع بفضله أن يذلل كل تلك الصعوبات التى صادفته من وقت أن بدأ النضال لاستنقاذ البلاد من براثن الاستعمار الإيطالى إلى حين أن صدر قرار هيئة الأمم المتحدة بإنشاء ليبيا دولة مستقلة ذات سيادة بعد ذلك بخمس وثلاثين سنة. فاقتناع بشير السعداوى بضرورة توحيد جهود الشعب الليبى بأسره: من برقاويين طرابلسيين (وفزازنة)

حتى يتسنى الظف بالاستقلال، واقتناعه بأن الوحدة الممثلة فى قيام دولة واحدة، هى ضمان بقاء هذا الاستقلال بعد بلوغه من العوامل الحاسمة التى جعلت فى قدرته - ليس فحسب كرئيس لهيئة تحرير ليبيا، وكرئيس بعدئذ للمؤتمر الوطنى العام لطرابلس الغرب، بل وكزعيم "قومى" أن ينفرد بالسيطرة على توجيهه الكفاح السياسى فى مرحلته الأخيرة. وأما اللبنة الأولى فى صرح الاستقلال اللذى أقرت الدول بأنه حق لليبيا، فكانت ذلك الإجماع الرائع الذى أوجده بشير السعداوى بين الطبالسيين أكثرية الشعب الليبى الساحقة على الوحدة والاستقلال أمام لجنة التحقيق الدولية الرباعية، فلقد كان على أثر ذلك أن تطورت الأمور بالصورة التى انتهت إلى استصدا القرار المشهور باستقلال ووحدة ليبيا فى ٢١ نوفمبر ١٩٤٩. وذلك بالرغم من الاتجاه "الإقليمى المحلى" الذى انحصر فيه نشاط ممثلى (الإمارة البرقاوية) مع "أولى الشأن" الإنجليز من جهة، سواء فى بنغازى أم فى لندن، ثم فى المحافل الدولية من جهة أخرى.

ولا ندحه عن معرفة العناصر التى تألفت منها عقيدة السعداوى السياسية وكيف تكونت هذه العقيدة، لفهم الحقيقة الكبرى فى حياة هذا الزعيم خلال نيف وأربعين عامًا، والتى هى تحرير ليبيا من ربقة الاستعمار الأجنبى، ونيل استقلالها دولة قوية ناهضة، وأمة متحضرة قد تزود أبناؤها بالعلم والمعرفة، لأن العزم الصحيح على إدراك هذه العناصر السامية قد سيطر على كل أساليب النشاط التى يمكن التفكير فيها فى ميدان العمل من أجل وحدة ليبيا واستقلالها.

ولا يفسر هذه العقيدة السياسية، وإن شئت إيمان السعداوى بحق وطنه فى الحرية والاستقلال، غير سيرة لا هى بالمطولة فتخرج عن نطاق هذا الكتاب والغرض الأصيل الذى كتب من أجله، ولا هى بالموجزة ذلك بالإيجاز الذى يجعل متعذرًا ملاحظة كيف توفرت العوامل التى خلقت تلك

الشخصية التى وضعت صاحبها موضع الزعامة الرشيدة فى قومه، وجعلته يدين بالمبادئ الوطنية القوية التى لا تعرف انحرافًا، والتى وقف هو بفضلها كالطود الشامخ فى وجه المستعمر دائمًا.

سيرة السعداوى:

وللسيد السعداوى سيرة حافلة، ذخرت بالتجارب التى أكسبت صاحبها صفات الزعامة وهيأته لأن يقوم بالدور الذى لا يزال يقوم به فى تايخ بلاده. فهو قد نشأ فى الخمس من أعمال طرابلس الغرب فى بيت عريق اشتهر أهله بالعلم والمعرفة والخلق الكريم، ودخل معترك الحياة وهو لا يزال يافعًا، وتولى قيادة الكفاح ضد الطليان فى جهة (ساحل آل حامد) عند غزوهم لطرابلس عند عزوهم لطرابلس الغرب، وهو فى سن السابعة والعشرين؛ ثم هاجر مع من هاجر من أبناء هذه البلاد عندما انتهت معاهدة (أوشى - لوزان) الحرب بين الدولة العثمانية وإيطاليا (١٩١٢)؛ فقصد إلى دار الخلافة، وتقلد وظائف الحكم والإدارة فى الدولة، فى الأناضول (لازستان)، والحجاز ولبنان، حتى إذا انتهت الحرب العالمية الأولى رجع إلى طرابلس (١٩٢٠) ليستأنف الجهاد ضد الطليان، واستطاع فى الوقت نفسه تسوية كثى من النزاعات بين الرؤساء الوطنيين حتى تتوحد جهود المجاهدين ولا تذهب ريحهم، ثم حضر مؤتمرغربان الذى تلاه تأسيس (هيئة الإصلاح المركزية) المشهورة التى اضطلعت بأعباء الحكم فى طرابلس الغرب، ومواصلة الجهاد، وكان السعداوى من أعضاء هذه الهيئة كما مثل طرابلس لدى حكومة الأمير السيد محمد إدريس السنوسى فى برقة بعد ما وقع الطرابلسيون والبقاويون (ميثاق سرت) لتوحيد جهود القطرين: برقة وطرابلس فى النضال ضد إيطاليا. ثم إن السعداوى لم يلبث أن أخذ البيعة الأولى من الطرابلسيين للسيد محمد إدريس بالإمارة على ليبيا (يوليه ١٩٢٢)، ولكن السيد محمد إدريس غادر برقة فى طريقه إلى مصر فى نهاية العام نفسه، وقضى الطليان على المقاومة فى

طرابلس، فاضطر بشير السعداوى إلى مغادرة الوطن مرة أخرى متخفيا إلى مصر ومنها إلى الشام (١٩٢٣)، وكان الطليان قد أصدروا ضده حكمًا بالإعدام. فاتخذ السعداوى من دمشق مقرًا لنشاطه، وأسس بها مع زملائه فى المهجر (جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى بالشام). واتسع ميدان نشاطه فساهم فى حوادث سوريا الوطنية على عهد الانتداب الفرنسى إلى جانب انشغاله بقضية الوطن. وكان مستشارًا الحكومة الدامداد أحمد نامى بك فى سوريا. وفى (١٩٣١) اشترك فى المؤتمر الإسلامى الذى انعقد فى القدس، وقدم فى هذا المؤتمر بوصفه رئيسًا للجنة التنفيذية للجاليات الطرابلسية البرقاوية تقريرًا مسهبًا (عن القضية الطرابلسية البرقاوية) ثم اختارته لجنة هذا المؤتمر التنفيذية بعد ذلك بثلاث سنوات للتوسط فى إنهاء الحرب التى نشبت فى عام ١٩٣٤ بين المغفور لهما الملك عبد العزيز آل سعود والإمام يحيى حميد الدين عاهل اليمن وكانت له مقابلات مع العاهلين، وبدأت من ذلك الحين تقوى صلاته بجلالة الملك عبد العزيز وعندما قامت الدعوة فى عام ١٩٣٧ لإنشاء "الوحدة العربية" كان السعداوى أحد العاملين لهذه "الوحدة" وقام بمهمات عدة لدى الملك عبد العزيز، ولمس فيه جلالته - رحمه الله - القدرة على العمل والحنكة السياسية، فاختاره "مستشارًا" له، وظل السعداوى - مع سائر زملائه "المستشار" - ملازمًا لجلالته طوال أيام الحرب العالمية الثانية. ولعل أهم الأحداث التى شاهدها السعداوى وهو يشغل هذا المنصب، كانت مقابلة الملك عبد العزيز مع الرئيس الراحل فرانكلين ديلانو روزفلت ورئيس الولايات المتحدة الأمريكية وقتئذ، وذلك فى مياه البحيرات المرة فى أوائل عام ١٩٤٥، ثم مع ونستون تشرشل رئيس الوزارة الإنجليزية، والمستر أنطونى إيدن وزير خارجية بريطانيا، على شاطئ بحيرة قارون فى الفيوم بعد المقابلة مع الرئيس الأمريكى، ثم زيارة الملك عبد العزيز لمصر فى يناير ١٩٤٦، ثم مؤتمر ملوك ورؤساء الدول العربية الذى انعقد فى انشاص فى مايو من نفس العام (فى مصر) وقد صحب بشير السعداوى المغفور له

الملك عبد العزيز فى هذه المقابلات والزيارات. ورافق الأمير سعود (جلالة الملك اليوم) - ولى عهد المملكة العبية السعودية وقتئذ عند حضوره مؤتمر أنشاص. وفى غضون العام نفسه (١٩٤٦)، وكانت الحرب قد انتهت فى أوربا منذ يوليه، وفى آسيا منذ سبتمبر من العام السابق (١٩٤٥)، وشرعت الدول تبحث مشروعات معاهدات الصلح مع إيطاليا وغيرها من دول المحور - على نحو ما أوضحناه فى الباب الأول من هذا الكتاب - وطرح على بساط البحث موضوع المستعمرات الإيطالية السابقة - ومنها ليبيا - أن واتت الفرصة حتى يستأنف بشير السعداوى نشاطه المباشر فى قضية الوطن؛ فبدأت من ثم تلك المرحلة الحاسمة فى تاريخ ليبيا، التى توجت فيها جهود السعداوى - وسيى القارئ أن زعامة السعداوى كانت لحد بعيد هى المسئولة عن ذلك - بنيل هذه البلاد استقلالها.

نشأته: (١٨٨٤ - ١٩٠٤)

ولنشأة السعداوى أكبر الأثر فى بناء تلك الشخصية التى تكونت تكونًا سريعًا دفع بصاحبها دفعًا إلى شق الجهاد الوطنى منذ اللحظة التى نفر فيها المجاهدون للذود عن حياض الوطن، وجعلته يتبوأ مكان القيادة من أيام مراحل النضال الأولى، حتى يغدو قطب الرحى الذى يدو عليه كفاح المجاهدين فى المهجر بعد ذلك، ثم الزعيم القومى الذى يقود أمته إلى العزة والكرامة والاستقلال بالرغم من أعاصير الأطماع السياسية الأجنبية، والنزاعات الحزبية استرشد ولا يزال يستشد بها فى حياته الخاصة والعامة: التمسك بحق الدين وحق الوطن فهو لا ينقض عهد الله من بعد ميثاقه، ولا يقطع ما أمر الله به أن يوصل، ولا يتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين لأن من يتولهم فهو منهم، ويعلم أن القاعدين لا يستوون مع المجاهدين فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وأن من يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأض مراغمًا كثيراً وسعة، ثم إن لهذه النشأة الفضل فى أن يقدر العلم والمعرفة

حتى قدرهما، فينكب بنهم على الدرس والقراءة لتثقيف نفسه، وحتى تتضح فى ذهنه معانى الحياة وتتحد قيمها، فتسع أفق تفكيره اتساعًا كبيرًا حتى ليشهدوا بالسداد وأصالة الرأى وهو لا يزال فى صدر شبابه.

فالسعداوى ينحدر من بيت عريق ينتهى فى أصوله البعيدة إلى بنى الأغلب الذين أسسوا دولتهم المعروفة فى أفريقية فى القن الثالث الهجى والتاسع الميلادى. وأبو محمد عبد السلام بن عبد الغالب المسراتى، هو الجد الأكبر لآل السعداوى، كانت وفاته بالقيروان فى سنة ٦٤٦ هجرية، ١٢٤٨ ميلادية. وقد عرفت القبيلة التى ينتمى إليها بيت السعداوى باسم الغلالبة. ولقد استوكن الغلالبة الساحل عند (قصر أحمد) بالقب من مسراته. وكان على أيام أحد أجدادهم الأوائل منذ أكثر من ثلاثة قرون أن انتقلت أسرة السعداوى إلى الداخل لتقطن بجوار (زموه) القبيلة التى توهم كثيرون أن بيت السعداوى ينتسب إليها. فأقام السعداويون فى مساكن منعزلة عن مساكن هذه القبيلة، وعلى أطراف المكان الذى صار يعف باسم (زموه) فى نواحى الضرائب المطلوبة من قبيلة (زموه) بل كانوا يدفعونها باسم بيت السعداوى. وظلوا يعرفون بالغلالبة وإن كان اسم السعداوى قد صار هو الآخر علمًا عليهم، ولو أنهم لا يدرون أصل هذه التسمية أو من أين جاءتهم.

وكان الغلالبة بيت علم ودين. كتب أحمد النائب فى مؤلفه المشهور (المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب) عن أبى محمد عبد السلام بن عبد الغالب المسراتى الصوفى "قال: فى "معالم الإيمان" قرأ على الشيخ (أبى يوسف الدهمانى) وغيره من الشيوخ الجلة كأبى زكريا يحيى بن محمد البرقى (الصوفى) قرأ عليه "القراءات السبع" و "الحديث" وتفقه عليه. وقرأ عليه جماعة انتفعوا به منهم (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصارى). قال العوانى: هو من أجل المشايخ قدرًا. وأعلام حالا. منفردًا بحاله فى وقته. لا يشاركه فيه أحد من أبناء جنسه، ولا يدانيه من أهل العناية التامة بتقييد الآثار

وخدمة العلم مع حسن التفنن فيه، والتصرف فى فهم معانيه. وله تآليف فى علم التصوف ومأخذ شديد. وكان من أهل العلم والمعرفة بالقراءات حسن الضبط لها. عارفًا بوجوهها وطرقها. أخذ الناس عنه كثيراً. وكان دينًا فاضلا، صوفيًا صاحب حال وعبادة ثقة فيما رواه. أخبرنا عنه الفقيه (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصارى) بجميع ما رواه. ووصفه بالعلم والصلاح والفضل والورع والجلالة. وكان الفقيه أبو زيد هذا يقول: "وهو شيخى ومعلمى وأحد من أنعم الله على بصحبته، اختلفت إليه كثيراً ترعينى قط مثله ؟ وفضلا، وصيانة لنفسه، وانقباضًا عن الناس. كثى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وما رأيت أحفظ منه لأخبار الصالحين وحكاياتهم. حسن الإيراد لها. متقنًا لما يحكيه منها. أنيس المجالسة، مليح المحادثة" اهـ . . وألف الشيخ أبو محمد عبد السلام تأليفًا فى الفقه سماه بالوجيز، وهو تأليف حسن وفيه فقه كثير. ونقل (الشيخ خليل) منه فى شرحه على ابن الحاجب وألف (شرح الأسماء الحسنى) تأليفًا حسنًا جداً، و (الزهر الأنيق فى قصة سيدنا يوسف الصديق عليه السلام). وتكلم فى ذلك بكلام حسن. ويخرج فى كلامه لتدقيقات وإشارات يعلم بذلك فقه، وأنه كان فريد أهل زمانه. ووحيد عصره. قال (العوانى): وتوفى رحمه الله بالقيروان على رأس السبعين ضحى يوم الخميس الثامن والعشرين من شه صفر سنة (٦٤٦) ست وأربعين وستمائة . . . ". أى ٢٢ يونيه ١٢٤٨.

وكان لأبى محمد عبد السلام بن عبد الغالب أخ، هو "أبو العباس أحمد بن عبد الغالب من أولياء الله تعالى، قال عنه (العوانى): كان من ذوى التقى، والحجاء والصيانة، والديانة، والزهد، والنزاهة. وكتم الفاقة، كثى التهجد والصلاة فى الأوقات مع همة عالية ورقة قلب وغزارة دمع. وكان يقصده أهل الصلاح والتوبة والإنابة ويلوذون به ويلازمونه ويتبركون به ويرغبون فى دعائه ويكثرون فى محالسته. فيعظم ويذكهم ويخوفهم المؤانسة جميل الأخلاق حسن اللقاء، على وجهه نو وعليه قبول".

ويأتى أحمد النائب فى تاريخه السالف الذك بسيرة ابن لأبى محمد عبد السلام هو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد السلام بن عبد الغالب المسراتى، فيقول إنه "كان صالحًا صوفيًا موصوفًا بالخير ونصر الفقير وحفظ الغيب والأم بالمعروف والنهى عن المنكر. وكان من ذوى الكرامات وخواق العادات حليمًا لين الأخلاق كيم الطباع عطاء لذى رحمه، وصولا لإخوانه. سالم الصدر، عفيف اللسان، شديدًا لتغيير المنكر، لا تأخذه فى الله لومن لائم. وكان خطيب جامع القيروان وقد بلغه عن بعض أهل القيروان كلام عليه فيه طعن أداه إلى الخوج عن البلد والهوب منه فقلق الناس من ذلك، ووجدوا وجدًا شديدًا على فقد مثله، فقد انتفع به عالم من الناس، وتاب خلق كثى على يديه. ثم إن الناس اجتمعوا إليه وأقسموا عليه وسألوه الجلوس بالبلد فأبى فارتحل إلى مدينة تونس مستوطنًا بها فحل من أهلها محل أهل الإادة واحتمل منها بمرقات التعليم والإفادة. ومكث بتونس حتى أصابه بها مض وغلب عليه بلغم عطل طلامه وثقل لسانه. وأخبره بتونس من الأطباء أن القيوان يصلح بها حاله ويرجى فيها برؤه وأنها أليق بمزاجه، وأن مقامه بتونس ضرر عليه. وعرف بذلك الحاكن وقتئذ فأمه بالرجوع للقيوان، فانصرف لها فاحتفل به أهل القيروان احتفالا فائقًا، وتلقوه وفرحوا به وأقام بالقيروان وحسن بها حاله إلى أن توفى - يرضى الله عنه - فى الرابع والعشرين من شهر رمضان المعظم لسنة (٧٠٤) أربع وسبعمائة، ودفن بباب تونس بجوا قبر أبيه - رحمة الله عليهما ورضوانه -،

ومن الغلالبة - القاطنين - بزمورة، جهة مسراته، كان الشيخ إبراهيم بن أحمد ابن سليمان، وشهرته (أبو شروحه) المسراتى. وإبراهيم هذا هو ابن الحاج أحمد السعداوى، الذى انتقل فى عهده السعداويون من الساحل للسكنى بأطراف زموره. وكان الشيخ إبراهيم جل علم ودين، وارتحل فى طلب العلم إلى مصر فدرس فى الأزهر الشريف على الشيخ محمد الخشى المالكى المتوفى سنة ١١٠١ هجية وسنة ١٦٩٠ ميلادية. وقد أجازه الشيخ

محمد الخشى فى ١٥ ربيع الأول عام ١٠٧٥ (٥ أكتوبر سنة ١٦٦٤) ويحتفظ آل السعداوى بهذه الإجازة. وقد جاء فى هذه الإجازة على لسان الشيخ الخشى أن: "الشيخ إبراهيم ابن أحمد بن سليمان شهى أبو شروحة المسراتى نسبًا المالكى مذهبًا الزمورى دارًا ومسكنًا وقد طلب منى الإجازة فيما تحمل عنى وقرأه، ولست والله - لولا خلو الزمان من فحول الرجال - أهلا لأن أجاز فيحق لى أن أجيز، لكن طلب الزيادة فى البر والتأنيس أوجب الإسعاف بمطلوبه التعجيز فأقول: أجزت الفقيه المذكور فى جمع ما أخذه عنى وسمه منى وأجازنى به أشياخى فى العلوم الشرعية من حديث وتوحيد وفرائض وفى ما هو مكتتب على مختصر الشيخ خليل ومنسوب إلى . . .".

ومن الغلالبة كذلك، أبو عبد الله محمد بن خليل غلبون المسراتى صاحب (تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار) وهو التاريخ الذى كتبه ابن غلبون على أيام الوالى أحمد باشا القره ما نلى مؤسس الأسة القره ما نلية سنة (١١٢٦ - ١١٥٨) هجرية و (١٧١٤ - ١٧٤٥ ميلادية). وكان على آخر أيام هذه الأسرة فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عش الميلادى (القرن الثالث عشر الهجرى). أن التحق بشير السعداوى الأكبر "إبراهيم السعداوى، بخدمة يوسف باشا القه ما نلى "كاتبًا" أو منشأ. وقد حكم يوسف القره ما نلى هذا حكمًا طويلا امتد من ١٧٩٤، إلى ١٨٣٢ ميلادية. وكان إبراهيم السعداوى تواقًا إلى تخليص البلاد من بطش القه ما نليه، وأصلهم من الإنكشارية الغرباء الذين كانت فرمانيًا من أقاليم الأناضول مسقط رأسهم. فما أن قام عبد الجليل سيف النصر شيخ أولاد سليمان بثورته التى يبغى بها استنفاذ طرابلس الغرب من يوسف باشا وطد القره ما نليه من البلاد عام (١٨٣١) حتى اتصل به إبراهيم السعداوى. ولكن يوسف باشا لم يلبث أن شع بما كان يريده إبراهيم فألقى القبض عليه هو وجماعة من المشتركين معه، وأراد إبعادهم منفيين إلى الأستانة. فحملتهم سفينة شراعية، سرعان ما عصفت بها الأنواء بالقرب من

(درنه) فحطتـها. واسـتطاع إبراهيم السعـداوى النجاة بنفسـه. ولما كان أمـير بنغازى، ولو أنه من القره ما نلية كـذلك، فى خلاف مع يوسف باشا وقتئذ، فقد حب بإبراهيم السعداوى وولاه حكومة درنه. وقد بقى بها السعداوى مدة حدث فى أثنائها أن استطاع عبد الجليل سيف النصر أن ينتزع من القره ما نليه (مرزق) عـاصمة فزان، كـما ثار أهل غربان، واضـطر يوسف باشا إلى فض الضرائب الثـقيلة على أهل ال هراء والمنشيـة والساحل وكانوا دائمًـا معفـيين منها. فانتـشرت الثوة وتنازل يوسف باشا مرغمًـا عن الولاية فى العام التالى لأحد أبنائه (سيدى على). ولكن نجم هذه الأسرة كـان قد أفل وانتهت أيامها وسط الاضطابات والنزاعات الداخلية بعد ذلك بقليل. وأما إبراهيم السعداوى فقد عاد إلى طرابلس ليشهد عودة عهـد الولاة العثمانيين إلى طرابلس ليشهد عودة عهد الولاة العثمانيين إلى طرابلس الـغرب، بتعيين مصطفى نجيب باشا فى إبريل سنة ١٨٣٥ واليًا عليها.

وقد ظل آل السـعداوى يتناقل أبـناؤهم قصيـدة طويلة باللغـة الدراجة (العامية) تسـجل وقائع إبعاد محاولة إبراهيم السعـداوى إلى الآستانة وتحطيم السفينة التى نقلته على صخـور ساحل (درنة) ونجاته وتعيينه لحكومة (درنة). ومن هذه القصيدة البيت الآتى:

أمنين المراكب فى غريق بحوه　　قطع سلاسلهم كما الجداده

و (الجداده) الخيـط الغزل. والبيت للاستنجـاد وطلب العون من المولى عز وجل عند الملمات لينقذ منها أبناء السعداوى الذين ستنجدون به: كما أنقذ الله سبحانه جدهم الأكب إبراهيم عندما تحطمت السفينة التى كان أسيرًا عليها فاستطاع النجاة. ويذكر هذه القصة جماعة من أهل درنة، لا يزالون يتناقلونها إلى اليوم، ومن هؤلاء الشيخ فرحات دربى.

وأما ابن إبراهـيم السعداوى، ويدعى مـحمـدًا، فكان من أهل العلم، ترك مكتبة عامرة بالكتب فى الدين والأدب. ويقول حفيده، بشير السعداوى،

الذى قرأ طائفة من هذه الكتب فى صباه وصد شبابه، أنه كثيراً ما كان يعثر على حواشى من صنع محمد السعداوى على كتب الفقه والحديث التى يقرأها. ومما يستدل منه على أن محمد السعداوى كان كثير المطالعة والدرس والاجتهاد، أن كتابًا من هذه الكتب على كثرة عددها لم يكن يخلو من تحشيته عليه، وكذلك كانت عميقة داسته للأدب، فيعث من يقأ من مكتبته ديوان المتنى مثلا، فى مواضع متعددة على كلمة (قف) عند رأس بعض القصائد التى كان محمد السعداوى يعتبرها من عيون الشعر. ولقد قرأ البشير من كتب الأدب التى عثر عليها فى خزانة محمد السعداوى: الطغائى وشحه والصفدى، وغير ذلك كثيراً، وأعجب الحفيد بجده، وإن لم يدركه. لكثة ما قرأ من ملاحظاته على الكتب التى تركها، وشب البشير وهو متيقن أن السيد محمد السعداوى كان على قدر كبير من العلم والمعرفة، وخى قدوة لكل طالب علم. وزاده هذا الإعجاب به ولعزمه أن يحذو حذوه، انكبابًا على المطالعة والدرس والتحصيل وهو لا يزال يافعًا.

وكان محمد السعداوى رئيسًا لمحكمة التمييز أو النقض والإبرام فى الخمس، وذلك قبل أن يجعل مركزها بالآستانة. وقد عرف بشير السعداوى شيئًا من سيرته وهو يشغل هذا المنصب ممن أدركوه من ذلك أنه فى حداثته، وهو لا يزال يقرأ القرآن فى سرت (١٣١٥ هـ، ١٨٩٧ م) كان قد عرف أن بها شيخًا مسنًا من مسلاته يحفظ القرآن، هو الشيخ أحمد الرويمى فأراد البشير أن يسأل الشيخ عن بعض متشابهات فى القرآن، فقصد الشيخ، واستدل منه على حاجته. ولكن الشيخ لم يلبث أن سأله إذا كان ابنًا لإبراهيم السعداوى أو لمحمد السعداوى، فلما أجابه بشير أنه ابن إبراهيم السعداوى. قال له الشيخ: اجلس إذن حتى أحد تلك عن جدك محمد السعداوى عندما كان رئيسًا لمحكمة التيز بالخمس. فقد جرت لنا معه قصة، هى أن قبيلتنا (القليل) من قرى مسلاته، كانت قد اتهمت بجزيرة هى بريئة منها. فلما نظرت محكمة التمييز الصية حكمت ببراءة المتهمين من أبناء القبيلة. فقصدت

إلى جدك زائرًا أحمل إليه هدية من العنب والفطير، فبقيت فى ضيافته أيامًا، ثم أردت العودة إلى بيتى، فطلبت مقابلته حتى أودعه، ثم أردت أن أسلمه مبلغًا من المال يزيد على خمسين ريالا أسبانيًا (أبو طيره) كانت القبيلة قد جمعته هدية له فى نظير المعروف الذى صنعه معها. فرفض محمد السعداوى أن يأخذ المبلغ، وردنى بالحسنى قائلا: إنى ما قبلت منك العنب والفطير إلا لأنك جئت به هدية، وقد قبل الرصول ﷺ الهدية، وأما تقديم المال الآن، فلا يمكن أن يكون إلا من قبيل الرشوة وإنى أخاف الله فى نفسى وفى ذريتى من بعدى. ثم تلا قوله تعالى: "وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافًا خافوا عليهم، فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدًا". وهكذا كان جدك رحمه الله من الرجال الألأتقياء، وإنى أدعو الله أن تنشأ أنت على هذا الحال". وقد أثرت هذه القصة فى نفس البشير تأثيرًا بليغًا.

وإلى هذا العهد يرجع تاريخ انتقال بيت محمد السعداوى إلى نفس من مسراته التى كانت أصلا مركز المتصرفية. فإنه لما أخذت الخمس مكانها، وصار بها مقر محكمة التمييز التى كان محمد السعداوى رئيسًا لها - أنتقل هذا إليها بأبنائه، ولقد ظلت بقية أسرة السعداوى مقيمة فى مسراته. وقد توفى محمد السعداوى سنة تسع وتسعين ومائتين وألف (١٢٩٩ هـ) وسنة ١٨٨٢ ميلادية. وهى السنة التى حصل فيها الاحتلال البريطانى فى مصر. وقد اعتبر الطرابلسيون هذا الحادث الأخير كارثة، ولذلك فقد رثاه (على الفورتيه) من مسراته فى "قصيدة"، أشار فيها إلى هذا الحادث، فكان من أبيات هذه "القصيدة" وهى باللغة الدارجة:

عام مات الى (البيك) والسعداوى وعام فتن ما تلقاش فيه كيف تداوى

ومنها: أنت فيما مضى ما نكش (لم يكن) عامل سيئة (تسىء إلى أحد)

ولا والدك رياه (رأياه) هان بلاده

ولا يشغلك مشهاب (شفلى النار) ناره حية (جمرة موقدة)

إتياب (تبيت) نار ما تصبحش غير رماده (رماد)

وفى الخمس، شغل إبراهيم بن محمد السعداوى، والد المترجم له منصب مأمور الإجراء (لتنفيذ الأحكام)، ثم صار أمين صندوق مركز متصرفية الخمس. وكان إبراهيم بن محمد السعداوى رجلا حييًا. عاش فى كنف والده، وكانت الأسرة فى زغد من العيش لما كان لها من بساتين وأرض رزاعية فى مسراته، ظلت فى حوزة آل السعداوى حتى صادرها الطليان منهم عند ما غزوا البلاد وساتولوا عليها. وقد أعقب محمد ا لسعداوى إلى جانب إبراهيم كلا من عمر والصادق السعداوى. وقو توفى إبراهيم بعد أبيه بأربع سنوات فى ١٣٠٣ هجرية و ١٨٨٦ ميلادية. وكان إبراهيم قد أنجب أبناء ثلاثة: نورى وهو الأكبر، وأحمد وقد توفى فى صمر سنة ١٩١٩، وبشير صاحب الترجمة، وكان بشير عند وفاة أبيه يبلغ الثانية من عمره، حيث كان مولده فى أواسط ١٣٠١ هجرية، (أوائل ١٨٨٤ ميلادية) فكلفه عمه الصادق السعداوى. ثم صار للإخوة الثلاثة أخ رابع من عمهم الصادق هو مختار السعداوى، وقد توفى رحمه الله فى طرابلس (قرقارش) فى صيف ١٩٥١.

ونشأ بشير السعداوى فى الخمس مكان مولده فى البيئة العلمية الدينية التى عرفناها، فبدأ بحفظ القرآن الكريم، وأتم حفظه فى سرت، حيث انتقل إليها أخوة الأكبر نورى السعداوى، معينًا (ندير مال) بها، فصحبه بشير إليها ليحفظ القرآن فى زاوية السنوسية التى فى سرت، وذلك فى سنة ١٣٥١ هجرية (١٨٩٧). وفى سرت شعد بشير السعداوى شيئًا من أساليب الحكم الفاسد فى العهد الذى سبق إعلان الدستور العثمانى، كما كان فى سرت أن سمع بشير السعداوى لأول مرة باسم جمعية (تركيا الفتاة) أو (جون تورك) Jeune Turque كما كانوا يسمونها، وعرف أن هناك (استبدادًا) حميديًا. تآمر جماعة من الذين فروا من الدولة والتجآوا إلى الخارج على إزالته. ولو أن

بشيراً لم يكن فى هذه المرحلة المبكرة يستطيع إدراك شىء عن حقيقة هؤلاء الجماعة الذين اتخذوا وقتئذ باريس مقراً لنشاطهم. بل إن كثيرين ممن هم أكبر منه سنًا فى ذلك الحين من مواكنيه أو أفراد أسرته ما كانوا يدرون شيئًا عن هذه الجمعية، اللهم إلا الاعتقاد بأنها "ضد الدولة".

والسبب فى هذه التجارب الجديدة التى صادفها بشير السعداوى فى سرت، أن الحاكم بها، أو القائمقام، كان فى ذلك العهد (عمر بن المنتصر) الذى كان قد صار يشغل هذا المنصب مدة ثلاث وثلاثين سنة، واستطاع أ، يفرض على هذا الإقليم حكمًا استبداديًا من طراز فريد. يذكر معاصروه ومسائل عدة يستبين منها نوع "ديكتاتورية" ابن المنتصر هذا فى سرت والذى اجتمعت فى شخصه - على حد قولهم - جميع "دوائر" أو مصالح الحكومة: من قضائية (محاكم) ومالية وغيرها. ولا غرض له من هذا التسلط إلا جمع المال والإثراء، والبطش بأعدائه أو من يجرءون على مخالفة أوامره أو نواهيه. يعاونه فى مظلمة أبناؤه: أحمد ضياء الدين وهو الأكبر. وأبو القاسم، وسالم املنتصر، ثم عبد القادر أصغرهم، ويذعن لأوامره أعضاء (مجلس الإدارة) الأربعة فى سرت، الذين يسلموه أختامهم ليختم بها على ما يشاء دون الرجوع إليهم. وأساليبه فى الحكم والإدارة أنه كان لا يقدم القاتل أو السارق إلى المحاكمة. بل يسعى إذا وقع حادث اعتداء بالسرقة أو القتل من قبيلة على أخرى، أن يأخذ الدية - فى حالة القتل - أو التعويض - فى حالة السرقة - من القبيلة المعتدية، ويجبر القبيلة المعتدى عليها على الصلح وقبول الدية أو التعويض، وغرضه من ذلك أن تتاح له الفرصة حتى يبتز كل ما يمكن ابتزاز من أموالل وأنانات وإبل وحيوانات القبيلة المعتدية ليستولى هو على الجانب الأعظم مما يحصله. ومن أساليبه كذلك أنه كانيحصل الأ/ وال الأميرية (الضرائب) قبل استحقاقها بشهرين من مشايخ القبائل، ثم يفعل مثل ذلك فى استيفاء الأعشار (وهى الضرائب التى كانت تدفع عينًا من الحبوب)، فيستبقى لنفسه من المال المتحصل أكثره، بينما يدفع النذر القليل منه مرتبات

الموظفين والجند على أقساط ضئيلة، حتى لقد يتأخر للواحد من هؤلاء الموظفين كالقاضى، ومدير المال، وكاتب التحريرات مرتب ثلاثة أو أربعة شهور. وأما ما يأتيه من (الأعشار) فكأن يبيعه لحسابه الخاص، وبالثمن الذى يراه هو مناسبًا، فيحق الجزء الأكبر على شئونه الخاصة، ويحاول أن يدفع من القليل المتبقى من هذا المبلغ جزءًا من مرتبات الموظفين بالصورة نفسها. ولم يكن هناك من يجرؤ على مراجعة (القائمقام) فى شىء، لطول عهده بالحكم، وبفضل ما صار له من سلطات استبدادية يمارسها وهو شبه مستقل عن مركز الولاية البعيد (طرابلس). وبلغ من اضطراب حبل الأمن بسبب الفساد الذى نشره (عمر بن المنتصر) وأبناؤه، أن لقى أحد هؤلاء الأخيرين (أبو القاسم المنتصر) حتفه فى حادثة مشهورة فى عين كعام، واتهم بقتله كل من رمضان وأخيه أحمد شتيوى (أبو السويحلى) - (١٣٢٦ هجرية، ١٩٠٨ ميلادية)، فلما تمكنت السلطات من القبض على المتهمين مع والدهما "وقدمت الثلاثة إلى المحاكمة، استطاع أحمد ضياء الدين (ابن عمر بن المنتصر) - وكان قائمقام بترهونة، ويسير فى حكومته سيرة أبيه عمر فى سرت - أن يجلب من ترهونة حوالى المائتين أو الثلاثمائة "شاهد عيان" لإثبات الاتهام على رمضان السويحلى وأخيه أحمد. ولكن كان واضحًا أن الحقيقة سوف تظل مجهولة بسبب هذا العدد الضخم من "شهود العيان" الذين تصادف "مرورهم" فى وادى عين كعام "مصادفة" وقت وقوع الحادث. وطلب محامى رمضان وأحمد السويحلى نقل الدعوى إلى محكمة الاستئناف فى (رودس)، وهناك أتى المتهمون بأحد المحامين من استانبول (سعد الدين فريد وهو مولود بطرابلس، وكان أبوه فريد باشا متصرفًا فى الخمس)، وقضت المحكمة ببراءة المتهمين، ورجعوا من رودس إلى طرابلس، أما أحمد ضياء الدين وأخوه سالم المنتصر. فقد يهما وجهيهما بعد المحاكمة شطر إيطاليا فبقيا بها حتى أتيا على ظهر البارجة الإيطالية التى كانت تحمل علم الأمير إليه، وأطلقت قنابلها على طرابلس عند الغزو الإيطالى (١٩١١).

على أن حادثًا استرعى نظر بشير السعداوى، لم يلبث أن وقع لأخيه نورى السعداوى فى سرت، كان بمثابة عهد لتعريف (بشير) بنشاط الأتراك الأحرار الذين يريدون وقتئذٍ إنهاء الاستبداد الحميدى. وإعلان الدستور العثمانى، فقد حدث بعد وصول نورى السعداوى وأخيه البشير) إلى سرت بأيام قلائل، أن بعث القائقمام (عمر المنتصر) يطلب لمقابلته نورى السعيد، بعد منتصف إحدى الليالى، وتوهم نورى أن أمرًا جللا قد حدث، فأسرع بالذهاب إليه ليجد مع القائمقام أحد أعضاء مجلس الإدارة الشيخ محمد بن مسعود، شيخ قبيلة (معدان) وقد أعد عمر بن المنتصر "مضبطة" كتبها أحد ضياء الدين، ابنه، معنونة باسم عزت باشا العابد، الذى قال فيه جورج أنطونيوس، صاحت (يقظة العرب) إنه "كان من المغامرين الذين استطاعوا أن ينالوا حظوه كبيرة لدى السلطان عبد الحميد عن طريق الكيد والدس، وقد قضى ثلاث عشرة سنة (حتى سقوطه عام ١٩٠٩) فى خدمة السلطان بصفة سكرتير ثان، فاستطاع خلالها أن يصبح أقوى موظف فى المملكة. وأما هذه "المضبطة"، أو عريضة الشكوى، فكانت مقدمة فى حق قائد المفرزةالعسكرية فيل سرت اليوزباشى غالب أفندى كان فى خلاف مع القائمقام وقتئذ. فانتهز أحمد ضياء الدين ابن المنتصر - وكان قد حضر لزيارة أبيه - الفرصة. فكتب ب"المضبطة" باتهام اليوزباشى غالب أفندى أنه ينتمى لجمعية (تركيا الفتاة) - جون تورك - ولاحظ نورى السعداوى أن هذه العريضة كانت مهورة بأختام أعضاء مجلس الإدارة الأربعة الذين ذكرنا أن عمر بن المنتصر يحتفظ بأختامهم ليستخدمها فيما يشاء دون حاجة للرجوع إلى اصحابها. ولما كان نورى السعداوى لا يدرى شيئًا عن هذا الاتهام - ولقد كان اتهامًا خطيرًا حقًا - لأن أعضاء تركيا الفتاة "متهمون" بالتآمر على نظام الحكم لقلبه وإعلان الدستور فى الدولة، فقد طلب نورى أن يوقع على هذه العريضة القاضى الشرعى أولا، الشيخ محمد سعيد الرافعى، بوصفه عضوًا طبيعيًا بمجلس الإدارة على اعتبار أن الشيخ سوف يمتنع عن التوقيع إذا كان هذا الاتهام غير صحيح،

فطلب من الشيخ الحضور فى التو والساعة. ولكنه امتنع عن التوقيع لجهله بالمسألة، وامتنع نورى السعيد عن التوقيع كذلك. وبطل إرسال "المضبطة".

وقد بقى بشير السعداوى فى سرت مدة سنة تقريبًا، رجع بعدها إلى الخمس، حيث أخذ يستكمل دراسته، فدرس الفقه المالكى، وصار يقرأ التفسير فى كتب مطولة. ويدرس علم التوحيد، وكذلك النحو، ,قرأ كثيراً عن غزوات النبى ﷺ، وخالد ابن الوليد، وعرف فتوحات الإسلام، وقرأ (مروج الذهب) للمسعودى، ومن هذا الوقت المبكر قوى شعوره بالعزة الإسلامية، ورسخ إيمانه بأن للإسلام حقًا مقدسًا فى أن يكون له كيان ودولة، وان واجب العرب أن ينهضوا حتى يحققوا للإسلام كيانه، ودولته، ثم دعاه طموحه لاقتفاء أثر السلف الصالح إلى أن يرغب فى استكمال دراسته. فتاقت نفسه حينئذ لبلوغ هذه الغاية إما بالذهاب إلى الأزهر الشريف، ليتقن علوم الدين، وإما بالالتحاق (بمدرسة العشيرة) التى أنشأها السلطان عبد الحميد الثانى بالآستانة لتعليم أبناء العشائر، بحيث يتخرجون فى هذه المدرسة ضباطًا فى خدمة الجيش أو موظفين مدنيين فى خدمة الحكومة. وعرض البشير رغبته هذه على عمه الصادق، وكان ذلك فى سنة ١٣١٧ هـ و ١٩٠٠ م. وأشار الصادق أن يتم ابن أخيه دراسته الدينية، فأخذ البشير يتأهب للدرس فى الأزهر وزاد انصرافه إلى المطالعة.

ولكن حدث وقتئذ أن فتحت (المدرسة الرشدية) فى الخمس أبوابها، والرشدية هى المدرسة النظامية التركية بها، وكان يتولى التدريس بهذه المدرسة معلم تركى له معاونون، يحضر من الآستانة فيظل يؤدى واجبه عامين أو ثلاثة ثم يعود بعدها إلى بلاده فيبطل بذهابه التعليم بالمدرسة وتكاد هذه تظل مغلقة تمامًا حتى يأتى من الآستانة معلم آخر وهكذا وفى هذه المرة وصل إلى الخمس ليشرف على المدرسة الرشدية بها معلم من طراز جديد هو حقى شيناس. أصله من (ريزه) فى إقليم (لازستان) Lazes على ساحل البحر الأسود الجنوبى، وملاصق للحدود الروسية لومينا (باطوم) الروسى -

وسوف يكون بشير السعداوى نفسه "حاكمًا" لريزه هذه فى مستقبل الأيام. وإلى الغرب من ريزه تقع "طرابزون"، وكانت قد تألفت بهذه الأخيرة جمعية لنشر العلم فى ممالك الدولة العثمانية، كان حقى شيناس من أعضائها، ثم صار من نصيبه العمل بمدرسة الرشدية التى بالخمس. وحقى شيناس كان رجلا مثقفًا يتقن من اللغات الأجنبية الفرنسية والإنجليزية والألمانية، ويعرف قليلا من العربية، تخرج فى دار المعلمين، وفى مدرسة الحقوق بالآستانة، ويؤمن برسالته التى هى تنشئة أكبر عدد من التلاميذ الذين يستطيعون خدمة الدولة، ويتولون أكبر مناصبها، وكان بشير السعداوى من الذين استرعاهم حماس حقى شيناس فذهبوا لزيارته، وبالقدر اليسير الذى يعرفه كلاهما من لغة الآخر، أمكن أن يتم التفاهم بينهما على أن يلتحق الأول بمدرسة الثانى. فانخرط البشير فى عداد تلاميذ (الرشدية). وكان هؤلاء يبلغون أكثر من مائتى طالب. وبالتحاق بشير بهذه المدرسة بدأت صفحة جديدة فى تنشئته.

فقد كان من دأب حقى شيناس أن يستحث تلاميذه دائمًا على الدرس والمذاكرة ويشتد فى ذلك اشتدادًا كبيرًا على النخبة الت يصطفيها لما يتوسمه فى أعضائها من النجابة، فيحرص على أن يزور هؤلاء بنفسه أو يرتب من يقوم بمراقبتهم فى غير أوقات الدراسة حتى يتأكد من أنهم يستفيدون من كل أقانهم بالقراءة، ولا يكاد ينقطع هو فى كل ليلة عن "التفتيش" على النخبة الممتازة من تلاميذه فى بيوتهم ليرى بنفسه ما يفعلون. وأى الكتب يقرأون. وغرضه من ذلك أن يعثر على عدد - مهما كان قليلا - من التلاميذ الذين يفوقون زملاءهم استعدادًا لتحصيل العلم والتزود بالمعرفة، حتى تزداد عنايته بشأنهم. ولم يكن حقى شيناس يقتنع بأن يتلقى التلاميذ العلوم التى نصت عليها برامج الحكومة العادية، بل زاد عليها دروسًا كثيرة فى الجغرافيا والتاريخ العثمانى، والتاريخ العام، والأخلاق والرياضيات وغير ذلك. وأما الذين يجد منهم إقبالا على العلم - وكان بشير السعداوى من بين هؤلاء - فقد بذل حقى شيناس مجهودًا أعظم فى تعليمهم وتثقيفهم. ثم إنه كان لا يفتأ يقول

لتلاميذه فى كل مناسبة ما يزيد من حماسهم فى الإقبال على العلم، وما يكشف كذلك عن حقيقة إيمان الرجل برسالته: أنتم طلاب، الواجب على الطالب أن يرى نفسه أهلا لأن يقود أمته، فتزودوا - لذلك - بالعلم والمعرفة وتسلحوا بالخلق المتين، وكان لهذا القول فعل السحر فى نفس "تلميذه" بشير السعداوى الذى استطاع من فرط انكبابه على القراءة والتحصيل أن يتم دراسته بهذه المدرسة فى عامين ونصف عام، بدلا من الأربع سنوات المحددة له، وكان تخرجه من (الرشدية) وهو يحمل إجازتها فى سنة ١٩٠٤ (١٣٢٢هـ).

ثقافته وتكوينه الذهنى (١٩٠٤ - ١٩٠٨)

على أن السنوات الأربع التى بدأت منذ أن فاتح بشير السعداوى عمه الصادق فى السفر إلى القاهرة للالتحاق بالأزهر، أو إلى الآستانة للدخول بمدرسة العشيرة، ثم قضى البشير جزءاً منها متتلمذاً على حقى شيناس فى مدرسة الرشدية، تميزت بحادث كان له أثره فى تنشئة بشير السعداوى، هو استضافة عمه الصادق منذ ١٨٩٩ للشيخ حسن الشاعر. فقد كان الشيخ حسن من الذين يحفظون القرآن الكريم بالقراءات السبع، ويتلونه بصوت جيد، وقع بينه وبين أهله فى دمنهور (البحيرة) ما جعله يذهب إلى الآستانة، ونزل عند الشيخ محمد ظافر المدنى "شيخ السلطان" - السلطان عبد الحميد -، وكان للشيخ ظافر تكية، وله حظوة لدى السلطان عبد الحميد، وأراد الشيخ ظافر مساعدته بأن يتيح له القراءة أمام السطان عند زيارته للتكية، ولكن أحد المقرئين من أهل الشام اهتبل القرصة عندما وجد الشيخ حسن يقطع وقتًا فى التهيؤ فقرأ هو بدلا منه، ونال منحة السلطان، وأراد أحد أبناء حسن يقطع وقتًا فى التهيؤ فقرأ هو بدلا منه، ونال منحة السلطان؛ وأراد أحد أبناء الشيخ ظافر (مصطفى بك) أن يعوضه عن ما فاته من إحسان السلطان، فجعله يقرأ أمام جوهر آغا كبير السراى السلطانية، وكان برتبة الصدارة العظمى، وهو حبشى، ولكن الشيخ حسن الشاعر لم يتيسر له إلا تلاوة قوله

تعالى: "يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون". فلم ينل إحسانًا من (الآغا) سوى بضعة ريالات. وأشار عليه الشيخ ظافر بالرحيل إلى طرابلس الغرب حيث يقيم ابن له (ظافر) بمدينة طرابلس، ولما كانت أسرة الشيخ ظافر من مسراته، وبينها وبين أسرة السعداوى مودة متينة، فقد استضاف الصادق السعداوى الشيخ حسن. ووفد الشيخ حسن إلى الخميس، فأقام فى ضيافة آل السعداوى حتى توفاه الله بعد ذلك بثلاث عشرة سنة تقريبًا فى غضون عام ١٩١١ وقبل مجيء الطليان إلى البلاد بقليل.

وكان الشيخ حسن الشاعر راوية أديبًا، نشأت بينه وبين بشير صلات ود وصداقة متينة وكان أهم ما اعجب بشير فيه هدوء نفسه وسماحة خلقه، ووداعته، فلا يذكر له رآه يومًا غضب أو اشتد فى قول أو فى ملامة، فأنس إليه ولازمه، ولم يصرفه عن عشرة الشيخ حسن أنه تعين بعد تخرجه من المدرسة الرشدية بأقل من أسبوعين فى إحدى وظائف الحكومة بالخمس.

فقد حرص حقى شيناس أن تفيد "الدولة" من مواهب تلميذه، فاصطحبه معه ولما تمض أيام معدودة على تخرجه إلى متصرف الخمس - ويدعى خلوصى بك - يفاخر به ويتحدى سائر موظفى المتصرفية أن يجلسوا فى امتحان واحد معه، ويطلب تعيينه فورًا. ولم يسع المتصرف إلا أن يستجيب لمطلبه، فرشح البشير فى بادئ الأمر (مأمور أعشار) وعمله متعلق بالضرائب النوعية، ولكنه عين (منشأ فى قلم التحريرات) فى الخمس، وطرب أكثر ما طرب حقى شيناس لهذا التعيين، وصار يبذل قصارى جهده لمساعدة تلميذه فى عمله الجديد، يتردد عليه فى (الديوان) ليرى ماذا يفعل. أو يبعث إليه بالرسائل من المدرسة كى يتلقى عنها من البشير جوابًا بالتركية؛ وذلك حتى يعتاد تلميذه الكتابة بسهولة بهذه اللغة، وكان البشير أيام تلمذته قد أظهر تفوقًا كبيرًا فى النحو التركى (قواعد تركية)، حتى كان أستاذه يكلفه

بشير السعداوى فى شبابه

إعطاء بعض الدروس فى ذلك لزملائه، وانفتح باب الترقى أمامه، فانتدب صحبة قائمقام مسراته للتفتيش على الأعشار، ومعنى ذلك زيارة الحقول والأراضى فى الأدوية البعيدة، للتفتيش على الهيئات التى تقوم بتقدير المحاصيل وقيمة العشور (أو الضرائب) فى القائمقاميات التابعة لمتصرفية الخمس، وهى إلى جانب قائمقامية الخمس، قائمقاميات مسلاته، ومركزها القصبات، وزليطن، ومسراته، وسرت، وتشتمل على ناحية تاورغام ثم لم يلبث أن عين مفتشًا لدوائر النفوس (أى مصلحة الإحصاء)، وكانت هذه ذات صلة وثيقة بعمل المحكمة الشرعية، حيث تعنى مصلحة الإحصاء بقيد المواليد والوفيات، ويحفظ سجلات لقيد الطلاق والزواج مما يحتاج إليه المحكمة الشرعية فى مسائل الإرث. وكان الموظف المسئول عن هذه المصلحة ورتشيًا، سرعان ما كشفت التحقيقات عن حقيقة أمره، وكان قد أضاع على الحكومة بسوء تدبيره أكثر من ألفين من الجنيهات العثمانية ذهبًا، وعين بشير بعد هذا الحادث "محققًا" لمحاكمة الموظفين، وكانت هذه وظيفة ذات سلطات كبيرة، ويخشى الموظفون صاحبها لأن التحقيق يدور باللغة التركية. وفى سنة ١٩٠٨ تولى متصرفية الخمس الدكتور رشيد، وكان من كبار الاتحاديين، جاء إلى الخمس بعد (الانقلاب العثمانى) وإعلان الدستور. وفى نفس السنة تعين بشير (باشكاتبًا) لمجلس الإدارة بالخمس، والسبب فى هذه الترقية أن نزاعًا كبيرًا كان قد نشأ بين أهل تاورغة (تاورغاء) على تقسيم الأراضى بناحيتها، وكانت هذه خصبة وذات مساحة كبيرة، وأوفدت (الولاية) طرابلس، و (المتصرفة) الخمس مندوبين كثيرين لحسم هذه النزاعات، ولكن دون طائل، فقر رأى الدكتور رشيد على انتداب بشير السعداوى لهذه المهمة، وكتب إلى مركز الولاية بمدينة طرابلس، أنه أوفد إلى تاورغة موظفًا يعتمد عليه "لكفاءته" - فى إنهاء الخلاف القائم، وبالفعل استطاع بشير تسوية النزاع وتقسيم الأراضى بين الأهلين. فتعين على أثر ذلك باشكاتب مجلس الإدارة. ولم يكن هذا آخر عهد بشير السعداوى بالتدرج فى المناصب الإدارية

الكبيرة قبل مجيء الطليان إلى طرابلس الغرب. فإنه لم يلبث فى عمله الجديد هذا إلا قليلا حتى تعين على أيام ولاية المشير إبراهيم أدهم باشا (١٩٠٩ - ١٩١١) مديراً للتحريرات، وهو منصب لم يكن طرابلسى قد تولاه من قبل، ولم يكن التعيين لهذا المنصب يصدر من الآستانة رأسًا. وقد ظل البشير (مدير تحريرات) بمركز الخمس حتى حصل الغزو الإيطالى فى عام ١٩١١.

ولكن هذه السنوات السبع التى قضاها بشير السعداوى فى الوظائف الحكومية قبل الغزو الإيطالى، كانت مرحلة مكملة لذلك التكوين الذهنى الذى بدأ قطعًا من قبل أيام الدراسة بالمدرسة الرشدية، واستمر طوال هذه المدة. ففى هذا الدور من حياته، زاد اختلاط البشير بالناس، وزادت - بحكم عمله - معرفته بمشاكلهم، وبطبائه البشر عمومًا، ثم هو إلى جانب هذا ظل شغوفًا بالقراءة والبحث والدرس. أما تجاربه فى عمله فقد جعلته كبير القلب، محبًا للناس عطوفًا عليهم. وأما قراءاته فإلى جانب أنها عززت فى نفسه الشعور بالعزة الإسلامية. فإنها سرعان ما نبهت ذهنه إلى ميادين من الفكر جديدة، تناولت موضوعات الوطن والوطنية فى نطاق الفكرة الإسلامية القومية، على أساس الذود عن كيان الوطن العربى وتحريره من كل سيطرة أجنبية (أوربية)، إذا كان للأجنبى (أو الأوروبى) سيطرة على قطر من الأقطار العربية، أو اليقظة للمحافظة على الوطن من أن يعتدى عليه المعتدون إذا كان مهدداً باعتداء الغير عليه، وذلك ما كان عليه حال عدد من ولايات الدولة العثمانية، صاحبة الخلافة الإسلامية، والتى كانت طرابلس الغرب - وطن بشير السعداوى - جزءًا من مقاطعاتها أو أملكها. ولقد كان من أثر هذه الثروة الفكرية التى حصلها البشير فى سنوات تكوينه الذهنى، أن أخذ يتبلور لديه الشعور بالقومية الوطنية، فى الحدود التى فرضها (النظام السياسى) القائم فى بلدان الدولة العثمانية العربية فى ذلك الوقت، والذى لا يجيز الخروج على الخلافة والانشقاق عليها، فتحدث البشير مع خلصائه عن "خلافة

عربية". ولم يقض على هذه الفكرة سوى اقتراب خطر الغزو الإيطالى من طرابلس الغرب، واستمساك بشير و "الوطنيين" العرب فى بلاده بالولاء الصادق لدار الخلافة، رجاء أن تستطيع الدولة العثمانية إذا بقيت منيعة الجانب، أن تصد عنها أطماع المستعمرين الأجانب (الأوربيين)، فتحفظ كيانها، وأن تدفع عن ولاياتها خطر الغزو الأجنبى الذى يتهددها، فلا يعتدى المعتدون على طرابلس. وأما هذه الآفاق الفكرية الجديدة فقد تضافرت عوامل ثلاثة على تمهيد السبيل إليها هى الآراء أو الفكر، التى تأثر بها البشير من قراءاته فى هذه المرحلة، وإعلان الدستور العثمانى، ثم الخطر الإيطالى الذى صار يتهدد طرابلس الغرب، ولا جدال فى أن هذه العوامل الثلاثة قد هيأت البشير لأن يتولى قيادة المعركة فى منطقته عندما حان حين الجهاد للذود عن حياض الوطن.

ويعتبر إعلان الدستور حداً يفصل بين عهدى فى نشأة وتطور العقيدة الوطنية السياسية عند بشير السعداوى، لأسباب سوف تتضح للقارئ عندما ندرس هذه المرحلة من حياته الذهنية من وقت دخوله المدرسة الرشدية فى عام ١٩٠١ تقريبًا إلى مجىء الغزو الإيطالى لطرابلس الغرب بعد ذلك بعشر سنوات (فى ١٩١١).

فقد أشرنا إلى شىء من الكتب التى قرأها بشير السعداوى، ونوع الثقافة التى تثقف بها - على وجه الخصوص - قبل التحاقه بالمدرسة الرشدية؛ وكانت هذه فى صميمها ثقافة دينية، ثم أثناء دراسته "النظامية" بالمدرسة؛ وقد تزايد شغفه بالقراءة فى الأدب والتاريخ حينئذٍ. ولم تصرفه أعمال وظيفته الحكومية عن مواصلة القراءة والدرس؛ بل من المقطوع به أنه قد صار فى السنوات الأربع التالية - إتمام دراسته بالرشدية إلى حين إعلان الدستور العثمانى فى يوليه سنة ١٩٠٨ - أشد إقبالا على المطالعة، وأكثر مثابرة عليها، حيث قد تفتح ذهنه إلى آفاق جديدة فى العلم والمعرفة، وتاقت

نفسه إلى فهم أسباب التقدم الاجتماعى الذى يمكن أن يرقى به العالم الإسلامى، وينهض بفضله بنو قومه - وهم فى اعتباره المسلمون قاطبة، وليس أهل وطنه الطرابلسيين وحدهم فحسب. وقد حرك فى نفسه هذه العوامل؛ ذلك الشعور العميق بالعزة الإسلامية الذى ذكرنا أنه جعل البشير يؤمن بأن الإسلام حقًا مقدسًا فى أن يكون له كيان ودولة، وأن على العرب واجب النهوض واليقظة من سباتهم حتى يفعلوا للإسلام ذلك.

وزودت (خزانة) السيد محمد السعداوى مرة ثانية البشير بحاجته من الكتب، حيث عثر بها على (مقدمة ابن خلدون)، وكان يخيل إلى البشير أن الكتاب مقدمة تسرد شيئًا من تاريخ الأمم فحسب (من العرب، والعجم، والبربر، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر)، ولكنه لم يلبث أن وجد ابن خلدون يتناول بالتحليل مسائل فى الاجتماع والسياسة والعمران، والعلم والأدب، وغير ذلك من مقومات الحضارة: الروحية منها والمادية، وكل ذلك مقدمات تناولتها (المقدمة) بصورة لم يسبق أن عثر عليها السيد بشير السعداوى فى الكتب التى قرأها، ومع أنه صعب عليه أن يستوعب لأول وهلة كل ما جاء (بالمقدمة)، فقد شعر أن عالمًا فكريًا جديدًا لا يلبث أن ينفتح لذهنه إذا هو ثابر على القراءة، والإمعان فيما يقرأ، وحفظ البشير فصولا من (المقدمة)، وصارت تتكون فى ذهنه رويدًا رويدًا عناصر تلك الصورة التى اعتقد أن ابن خلدون أراد من كتابه هذا أن يرسمها عن أمة، وكيف تنشأ؟ وكيف يتسنى لها أن تبقى وأن ترقى اجتماعيًا وسياسيًا؟ /ع ما يجب معرفته من شرائط أنظمة الحكم الصحيحة وأدواته السليمة، لضمان البقاء واستمرار الرقى.

وكان فى هذه الأثناء أن عرف أهل العلم فى هذه الأقطار الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وأقبلوا على رسالاته وكتاباته يقرأونها. من ذلك ما كانت تنشره للأستاذ الإمام صحيفة (المؤيد) التى يصدرها الشيخ على يوسف، أو ما صدر مطبوعًا فى كتب مستقل. وكان من هذا النوع الأخير، رسالة التوحيد

التى طبعت للمرة الأولى فى سنة ١٣١٥ هـ (١٨٩٧)، وقد وصلت هذه الرسالة إلى تونس والجزائر، وإلى طرابلس الغرب، ورسالة التوحيد قال عنها السيد محمد رشيد رضا فى (المنار): "إنها هى الكتاب الوحيد الذى يصلح فى هذا العصر للاعتماد عليه فى الدعوة إلى الإسلام على الوجه الذى اشترطه المتكلمون فى صحة الدعوة، وهى أن تكون على وجه يحرك المدعو إلى النظر فيه، وقد سلكت هذه الرسالة - فى نظر السعداوى - أسلوبًا جديدًا لم يألفه فيما قرأه قبلها يعتمد على التفكير الهادئ، الرتيب لسان العقيدة الإسلامية وتوضيحها. ولما كانت دفاعًا قويًا عن الإسلام يدحض المفتريات التى اقتربت عليه زورًا وبهتانًا. فقد تزايد تعلق البشير بالأستاذ الإمام وراح يقرأ كل ما استطاع أن يعثر عليه من كتاباته. وساعد على ذلك أن صحيفة (المؤيد) كانت تصل إلى طرابلس الغرب، وكان بشير السعداوى ممن واظبوا على قراءتها. وكان من قراءته (للمؤيد) أن وقف على (مناظرة هانوتو) المشهورة أو الرد على هانوتو الوزير الفرنسى الذى كتب فى جريدة (الجورنال دى بارى) الفرنسية فى أوائل عام ١٩٠٠ فى موضوع الإسلام والعقائد السامية والآرية وما يتصل منهما بالإسلام والمسيحية، وغرضه هو وأمثاله - كما فهم المعاصرون - أن يهاجموا "الدين تمهيدًا للاستعمار مستدلين على دعواهم بالانحطاط الذى أصاب المسلمين لتهاونهم فى أمور دينهم الداعية إلى إصلاح الدارين". فنشر (المؤيد) مقالات وأحاديث (هانوتو) معربة، وتولى الأستاذ الإمام الرد عليه، ونشر (المؤيد) ردود الشيخ محمد عبده لتفند دعاوى (هانوتو)، وقد طبعت هذه المقالات أيضًا بعد ذلك فى كتاب مستقل (سنة ١٩٠٩) ثم طبعت مرات متعددة بعد ذلك. وكان الغرض الذى رمى إليه فى الرد على (هانوتو) هو - على حد ما ذكره السيد رشيد رضا - "تنبيه المسلمين وإرشادهم إلى النظر فى عيوبهم، والبحث عن الأسباب التى أفسدت عليهم أمر دينهم ودنياهم، وعمت ملوكهم وحكامهم وسوقتهم ودماؤهم، والجمع بين أسباب الفساد وبيان المخرج منها".

وإلى جانب الناحية الدينية الصميمة فى مقالات الأستاذ الإمام عند رده على (هانوتو) وهى الناحية التى امتلأ بها قلب السعداوى منذ نعومة أظفاره، وجد السعداوى فى هذه المقالات ما ساعد عل يإرواء ظمئه بشأن تلك الموضوعات الاجتماعية والسياسية التى صارت تستأثر بقدر كبير من اهتمامه، لا على أنها منفصلة عن شئون الدين - فالإسلام فى نظره دائمًا ومنذ أن بدأ يقرأ ويدرس دين ودنيا معًا - ولكن على أنها تعاونه على معرفة الأدواء التى يشكو منها الملجتمع الإسلامى، وترشده إلى خير الوسائل التى يمكن بها إصلاح هذا المجتمع والنهوض به. وقد نزلت أقوال الأستاذ الإمام فى هذه الموضوعات بردًا وسلامًا على قلبه، وأثلجت صدره، لأنها أيدت فى نفسه الشعور بالعزة الإسلامية، وهو الشعور بأن للإسلام (والعرب) كيانًا، وأن الخلافة الإسلامية - على نحو ما عرفه بها الناس على عهد الخلفاء الراشدين - إذا كانت قوية، حفظت للعالم الإسلامى كيانه. ذلك كان الشعور السائد فلى ذلك العصر بين نبهاء المسلمين وعقلائهم، وذلك مما أراد أن يذكره الأستاذ الإمام فى رده على (هانوتو)، ومما ارتاح إليه السعداوى وهو يقرأه، ثم استقر فى ذهنه. فقد كاب الأستاذ الإمام فى إحدى مقالاته يريد أن يفسر الدعوى القائمة وقتئذٍ إلى الجامعة الإسلامية ويؤيدها:

لم يخطر ببال أحد ممن يدعو إلى الرجعة إلى الدين سواء فى مصر أو غيرها أن يثير فتنة على الأوربيين أو غيرهم من الأمم المجاورة للمسلمين، غير أن بعض المسيحيين إذا سمع قولا فى الدين أعرض عن فهمه، وأنشأ لنفسه غولا من خياله يخاف منه ويخشى غائلته يسميه باسم الدين، وبعضهم يظن أنه لو انتبه المسلمون إلى شئونهم، ورجعوا إلى الأخذ بالصحيح من دينهم، لاعتصموا بجامعتهم، واستعانوا على تقويم أمورهم بأنفسهم، واستغنوا عمن أدخلوه فى أعمالهم من غيرهم .. نعم يعررض فى طريق الدعوة إلى الدين أوجه، أن يلتمس مسلم بمصر معونة من مسلم آخر

بسورية، أو بالهند، أو بالعجم، أو بأفغانستان، أو بغير هذه الأقطار، لأن مرض الجميع واحد، وهو البدعة فى الدين فإذا نجح الدواء فى موضع كان السليم أسوة للمريض فى موضع آخر. وأما السعى فى توحيد كلمة المسلمين وهم كما هم، فلم يمر بعقل أحد منهم . . . ".

ثم يكتب الأستاذ الإمام عن دار الخلافة: "يكثر المسلمون اليوم من ذكر الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد، ويعلقون آمالهم بهمته، وكثير منهم يدعو إلى عقد الولاء له، وهذا أمر لا ينبغى أن يدهش، فإن هذه الدولة هى أكبر دول الإسلام اليوم، وسلطانها أفخم سلاطينهم. ومنه يرتجى إنقاذ ما بين يديه من المسلمين لما حل بهم، وهو أقدر الناس على إصلاح شئونهم، وعلى مساعدة الداعين إلى تمحيص العقائد وتهذيب الأخلاق بالرجوع إلى أصول الدين الطاهرة النقية، فأى شىء فى هذا يزعج أوربا حتى تتحد على هضم حقوق المسلمين إذا حدثت حوادث مثل الحوادث الماضية كما يقول مسيو هانوتو".

لعل هذا (الرد على هانوتو) الذى جاء على لسان الشيخ محمد عبده صاحب الصيت الذائع فى الأقطار العربية، ومنها طرابلس الغرب، بأنه الأستاذ الإمام، كان من أهم الحوافز على أن يستمسك بشير السعداوى بما اعتدى إليه فكره واستنار به وجدانه من حيث إن للعالم الإسلامى كيانًا، على كل مؤمن أن يبذل قصارى جهده ليحفظه سليمًا قويًا وذلك بتأدية الواجب عليه فيما يطلبه إليه عمله سواء كان هذا من الأعمال الكبير المرموقة، أم مما لا يخرج عن سلوك المرء فى حياته العادية، فى علاقاته مع مواطنيه وبنى قومه كمواطن ومعتز بإسلامه، وفى صلاته مع سائر البشر كإنسان يسع قلبه الإخاء والمودة للناس قاطبة. ولقد زاد يقين السعداوى كذلك بفضل ما يذكره الأستاذ الإمام عن الدولة العثمانية، بأن الولاء الصادق للدولة - وهى صاحبة الخلافة - ضرورى ليس لبقاء الوطن الإسلامى فحسب، بل ولنهضة الشعوب الإسلامية كذلك. سواء أقرت الحوادث ن ذلك كان تقديراً صحيحًا، أم ثبت

obeikandl.com

والنصرانيـة مع العلم والمدنية) التى كـانت قد نشرت فى سلسلة من مـقالات كتبها الإمام فى سنة ١٩٠١، ثم طبـعت بعد ذلك على حدة (١٩٠٢) وأعيد طبعها مراراً، وقد فتحت قراءتها ذهن البشير إلى نواحى الإصلاح الاجتماعى والعلمى والسياسى - إلى جانب الإصلاح الدينى - التى إذا استيقظ المسلمون من سبـاتهم، واستطاعوا أن يأخذوا بهـا، واستطاعوا النهوض من كـبوتهم، واستـرجاع مجـدهم، وصار فى قدرتهم أن يـؤسسوا ذلك العـالم الإسلامى الذى رسم البشير صورته فى ذهنه، رفيع الـعماد، وثيق البنيان، على نحو ما أوحى به إليه شعوره العميق بالعزة الإسلامية.

ومن الكتب التى قرأها بشير السعداوى، وتركت فى نفسه أثراً مشابهًا لما تركته قراءاته هذه التى ذكرناها، كتـاب (المرحوم) محمد فريد وجدى (١٨٧٥ - ١٩٤٥) عن "المدنية والإسلام، وهو الكتاب الذى يقـول عند رشيد رضا: "أنه لا يسبق كتاب المدنية والإسلام فى بيـان التعاليم الدينية فى قالب حديث إلا رسالة التوحيد التى وضعها الشـيخ محمد عبده. ويبين بعض المسائل التى نهج فيـها فريد وجدى نهج الأسـتاذ الإمام لا فى أسلوبه فـحسب، بل وفى طريقة تناوله للموضوعات التى كتب عليها". وفريد وجدى من شيعة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، واشتهر بكتاباته فى نصرة الدين والدفاع عنه، وهو كتاب دعوة إلى الإصلاح إل جانب أنه دفاع عن الإسلام الصحيح. كتبه أولا بالفـرنسيـة، ثم نقله إلى اللغـة العربيـة. وكان أول ظهـور الكتاب فى عـام ١٨٩٨، وصدرت الطبعة الثانيـة منه فى عام ١٩٠٤، وقد ترجم الكتاب إلى التركية ثم إلـى اللغة الأوربية بالهند، ثم إلى الفارسية بفـارس ثم إلى التتارية بالقازان، (ثم إلى اللغة البوسنوية فى ولاية البوسنة، ومن المعروف أن هذه لم تنضم نهائيًـا هى والهرسك إلى الإمـبراطورية النمسـاوية إلا فى عام ١٩٠٨) وصدرت طبعة ثالثة بالعربيـة بعد ذلك (١٩١٢). ويكفى لبيان الغرض الذى كتب من أجله محـمد فريد وجدى (المدنية والإسلام) وتوضيح الـعقيدة التى حفزت صاحـبها إلى الكتابة، أن نأتى بما ذكره هو نفـسه عن هذين الأمرين،

حيث يتبين أن مقصده من تصنيف (المدنية والإسلام) إنما "هو تفهيم الأوربيين حقيقة الدين الإسلامى وماهيته، وإثبات أنه ضامن للإنسان نيل السعادتين وكافل له راحة الحياتين. أما وجه كونه (أى هذا العمل) ضروريًا لا مناص منه، فهو أن الغربيين أصبحوا بجدهم ونشاطهم أصحاب السلطان والنفوذ على معظم العالم الإسلامى وما داموا جاهلين بحقيقة الإسلام ومعتقدين ما يهذى به بعض كتابهم ضده، فإنهم لا يستطيعون أن يروا فى ديانة محكوميهم إلا عبئًا ثقيلا على عقولهم، وحملا مضيئًا لمداركهم فلا يقرونهم عليه إلا احترامًا لعواطفهم فقط راجين من العلوم العصرية والمعارف الطبيعية القيام بتهذيبه فى المستقبل، ثم قال فى موضوع آخر من فاتحة رسالته التى أنشئت للطبعة الأولى (سنة ١٨٩٨): "على أنى كلفت نفسى تجشم المصاعب فى هذا العمل لا بقصد اتخاذ اشتغالاتى فيه تسلية لى على ما أضعا من وظيفة أو شهرة، كلا. بل غرضى الوحيد من هذا العمل هو إقامة الحجج العلمية على أن دين الإسلام ليس بالدين الذى يتسناه ذووه أو ينوى الكشح عنه متبعوه. وأنه ليس بالدين الذى تعارضه العلوم العصرية والحقائق الفلسفية، بل هى مما تزيده تثبيتًا وتمكينًا، وتزيد متبعه إيمانًا . . . ". وأما عقيدته فى الإصلاح المستند على تعاليم الدين الإسلامى الصحيح، فقد يفسرها قوله: "الإسلام دين خدمته العلوم الطبيعية على غير علم من ذويها حتى صارت نصوصه فى هذا القرآن أوضح من الضياء وأسهل جولانًا فى العقل من الشعاع فى الماء. فلا قاعدة دلت عليها التجارب، ولا نظرية تأسست بشهادة المشاعر يكون لها أثر فى ترقية الإنسان وتحسين بناء العمران، إلا وهى صدى صوت آية قرآنية، أو حديث من الأحاديث النبوية، حتى يخيل للرائى أن كل جد ونشاط يحصل من علماء الكرة الأرضية فى سبيل رفعة شأن الإنسانية لا يقصد به إلا إقامة الحجج التجريبية على صحة قواعد الديانة الإسلامية "سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد".

وواضح أن كل هذا التثقيف كان دينيًا اجتماعيًا فى جوهره، لم يزد فى واقع الأمر عن تدعيم الأسس التى تثبت عليها عقيدة السعداوى (الدينية - الاجتماعية) والتى تأصلت جذورها فى نفسه من أيام نشأته، وهى العقيدة التى تقوم - كما عرفنا - على الشعور بالعزة الإسلامية، وعلى ضرورة أن تبعث أمجاد العرب. ولعل الناحية السياسية الوحيدة التى استطاع أن يخلص بها بشير السعداوى من قراءاته هذه حتى هذا الحين كانت نبتت أصلا فى ذهمه بحكم بيئته التى نشأ فيها من ناحية، ونوع الثقافة الإسلامية التى تثقف بها من ناخية أخرى ثم إن السعداوى يفضل قراءاته للأستاذ الإمام وتلاميذه وشيعته، لم يلبث أن تنبه إلى أن الدولة علاوة على أنها دولة الخلافة الإسلامية، ففى بقائها ضمان لوقف انتشار سلطان الأجانب على الشعوب الإسلامية والعربية التى ت ضمنها الدولة العثمانية إليها، أو أولئك الذين اعتقد بشير السعداوى أن فى وسع الدولة أن تدفع عنهم الأذى إذا تعرضوا لأطماع المستعمرين الأوربيين، أو تسعى لاستنقاذهم إذا وقفوا فى حبائل هؤلاء واغتصبوا بلادهم.

ولكن ميدانًا من الفكر الجديد كان فى أثناء ذلك كله قد بدأ نفتح أمام بشير السعداوى رويداً رويداً، وذلك منذ أن شرع يقرأ صحيفة (المؤيد) التى ذكرنا أنه طالع فيها كثيراً من مقالات الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وقرأ فيها خصوصًا (الرد على هانوتو)، فقد نشرت (المؤيد) مقالات متعددة الاستعمار، "أيا كان لونه أو مداه"، وصارت تحمل حملة شديدة على الأجانب "كلما اتصلت ظروفهم بالمسلمين فى أى مكان من الأرض اتصال الظالمين بالمظلومين"؛ واتسعت صفحاتها لجولات الكتاب الوطنيين الناشئين، وعلى رأس هؤلاء مصطفى كامل، ثم لم يلبث مصطفى كامل أن أصدر جريدة اللواء، التى ظهر أول أعدادها فى يناير ١٩٠٠، وقد استمرت جريدة اللواء حتى ينة ١٩١٤. فتوقفت بعد وفاة مؤسسها بست سنوات تقريبًا، وقد جمع على فهمى كامل شقيق (مصطفى كامل خطبه وأحاديثه ورسائله، وصار

يصدرها تباعًا فى أجزاء بعنوان: مصطفى كامل باشا فى ٣٤ ربيعًا - سيرته وأعماله من خطب وأحاديث ورسائل سياسية وعمرانية)، وذلك بعد وفاة مصطفى كامل ابتداء من عام ١٩٠٨؛ وقد وصلت (اللواء) إلى طرابلى الغرب، كما وصلت إليها مجموعة خطب مصطفى كامل ورسائله، وحرص بشير السعداوى على أن يقرأ كل ما يقوله أو يكتبه الزعيم الشاب ويأتى إلى (الخمس)، وصار يتتبع أخباره فى كل مراحل نشاطه، وكان مثار إعجابه به أن كان صاحب دعوة واحدة، تتجلى فى مطالبه التى لا تتغير حيث كان يدعو إلى ضرورة إجلاء الأجنبى المستعمر من البلاد، حتى يسترد أهله وبنو قومه حريتهم واستقلالهم، وحتى يتسنى للوطن أن ينهض وأن يمضى قدمًا فى طريق التقدم والرقى، فلا يقف (الاحتلال) حجر عثرة فى سبيل هذا النهوض. واقترن ثبات الزعيم الشاب فى المبدأ بانقطاعه لهذه الدعوة، فأكبر بشير السعداوى أن يتفانى سبيلها بحيث لا تصرفه مشاغل الدنيا، أو يقعد به المرض مهما اشتدت وضأته عليه عن مثابرته فى دعوته، وآمن بعظمة الرجل الذى حمل لواء الدفاع عن حقوق بلاده، فكان بشير السعداوى أحد أولئك "الأصدقاء" العديد الذين كانوا لهذا الزعين الوطنى، فى خارج بلاده، تربطهم به أوثق الصلات الروحية من غير حاجة إلى أن يقوم بينهم وبينه تعارف، عن طريق الاتصال الشخصى، حتى إن السعداوى يوم وفاة مصطفى كامل، لم يتمالك أن بكى بكاء شديداً عندما أبلغه النبأ المحزن أحد أصدقائه ومواطنيه، المرحوم الشيخ عبد الرحمن الزقلعى فى الخمس (فى فبراير ١٩٠٨).

ومن الناحية السياسية، استرعى نظر بشير السعداوى من دعوة مصطفى كامل أولا، (أنفاقها وما كان هو نفسه من زمن، قد صار يؤمن به، من حيث ضرورة التمسك بالولاء للدولة العثمانية، دولة الخلافة الإسلامية، ففى ذلك يقول مصطفى كامل: "فالدولة العلية - حماها الله - هى الدولة الإسلامية الوحيدة التى تخشى أوروبا من قوتها ونفوذها. وأعداء الإسلام يودون من

صميم أفئدتهم أن يزول اسمها من الوجود حتى تموت قوة الإسلام، وتقبر سلطته السياسية، وهم يعملون ليل نهار لبلوغ هذا الغرض السيء. ثم يدعو للجامعة الإسلامية، ولكنه يبادر فيقول: "وإنى لست ممن يتمنون اجتماع العالم الإسلامى ضد العالم المسيحى وإهراق الدماء، بل إنى أتمنى وأجاهر بهذه الأمنية وهى أن يسير العالم الإسلامى أيسره فى طريق النور والعلم، وأن يجتمع كله حول الخلافة العظمى لصد أعدائها ورد اعتداء المعتدين". ولكن الجديد فى الفكرة السياسية التى أتى بها مصطفى كامل، ومما أثار انتباه بشير السعداوى، أن يكون هناك (وطن قومى) فى نطاق الدولة العثمانية. فيذود المصريون عن حرياتهم وحقوقهم "الوطنية" دون أن ينجم من ذلك انشقاق على الدولة، وانفصال عنها، أو إضعاف لشأنها، بل هم - على حد ما كان يدعو إليه مصطفى كامل - من واجبهم أن يبذلوا قصاريأهله فى تأييد الدولة، والمحافظة على بقائها موئل الخلافة الإسلامية. حقيقة شهدت طرابلس الغرب على أيام القرمانلية نوعًا من "الاستقلال". ولكن سواد الطرابلسيين أنفسهم لم يكونوا راضين به. فكثرت الاضطرابات والنزاعات التى أثارها الخارجون على القرمانلية. واشتدت هذه خصوصًا فى أيام يوسف باشا القرمانلى. وقد شهدنا كيف أن إبراهيم السعداوى (الجد الأكبر) كان ممن أرادوا تخليص البلاد من حكم هذه الأسرة "الأجنبية". وزيادة على ذلك، فلم يكن لدى القرانلية أى تفكير فى إنشاء "وطن قومى"، لسبب بسيط هو أن أحد من المعاصرين ما كان يجرؤ وقتئذ على التفكير فى الانتقاض على دولة للخلافة الإسلامية، فظل القرمانلية يعترفون بسيادة الدولة عليهم، ويصدر فرمان التقليد لهم من السلطان العثمانى، ومنذ أن انقضت أيام القرمانلية والدولة تعين الولاة العثمانيية ليحكموا طرابلس الغرب حكمًا مباشرًا، كمقاطعة عادية من مقاطعات الدولة العثمانية، وذلك ما كان يختلف والوضع الذى كان لمصر، منذ أن جعلت الفرمانات السلطانية الحكم فى مصر من نصيب أسرة محمد على فى عام ١٨٤١، أى بحوالى خمس أو ست سنوات من استرجاع الباب

العالى لنفـوذه المباشر على طرابلس الغـرب، ثم منذ أن جد على هذا الوضع القائم فى مصـر، الاحتلال البريطانى، منذ عـام ١٨٨٢ فكان بسبب هذا كله لدعوة مصطفى كامل أعمق الأثر فى تفكير بشير السعداوى.

وذلك علاوة على ما تقدم، لأن دعـوة الزعيم الشاب إلى إنشاء الوطن القومى فى نطاق الدولة العثمانية - دولة الخلافة الإسلامية - قد استندت على أساس، كان لا منـاص من توفره أصلا حتى يتـسنى بناء هذا الوكن القومى، هو جلاء الإنجليـز من البلاد وإنهـاء عهد الاحـتلال البريطـانى. ولقد نصب مصطفى كـامل نفسه لمقـاومة الاحتـلال البريطانى، وكرس حـياته لبلوغ هذه الغاية. فانعكست عن جـهاده المتصل فكر رسخت فى ذهن بشيـر السعداوى منها أن الاستعمار الأجنبى كارثة تنزل بـبلد من البلدان، فتمحو محوًا كل أثر لتقدم روحى أو مـادى فى هذا البلد، وتقضى قضاء مـبرمًا على كل أمل فى تقدم أهله ورقيهم فى الحاضر وفى المستـقبل؛ وإن الاستعمار البريطانى - لى وجه الخصوص - وهو البلاء الذى تشكو مـنه مصر، ويدوى صوت مصطفى كامل مجلجلا لتـقويض أركانه، نقمة وشر مسـتطير، وإن الأمة التى لا تحزم أمـرها أو تفـرق الخـلافات أبناءهـا، يذهب ريحـها وتعـجـز عن رد غـائلة السمـتعمرين، وإن الاسـتعمار البـريطانى إنما يعمل جاهدًا لتقـويض عروش الخلافـة الإسلامـية حتى يتـمكن من بلوغ مأربـه، وإن مسألة مـصر مـسألة إسلامـية، لأن أى شـر يصـيب هذا البلد، يمتـد أذاه إلى العالم الإسـلامى قاطبة، وإن بقاء الاحتلال الإنجليزى فى مـصر، لا محالة عائد بالضرر البليغ على دولة الخلافة وعلى الأمم التى تتألف منهـا هذه الدولة. فمصطفى كامل يقول: "إن عموم المصريين كارهون للاحتلال الإنجليزى، وهم يعتقدون اليوم أن غاية وجود الإنجليز. وبالاخـتصار فقد فقد تعلـمنا من الاحتلال الإنجليزى أن نعتـقد بأن لا شرف ولا ذمـة فى السيـاسة، وفى موضع آخـر: "إن سوء مقاصد الإنجليز نحونا (أى نحو المصـريين، أصبح واضحًا تمام الوضوح حتى الأحرار الذين يجاهرون بأنهم نصراء الجلاء هم خبيثوا النية وليسوا فى الحقيقة

إلا (الإنجليز) أقل صراحة من غيرهم، ثم "إن المصريين ينتصرون للتقدم والمدنية، ولكنهم لا يرون فى كل الاضطرابات التى جرت فى الشرق شيئًا آخر غير الدسائس الإنجليزية"، ثم "فمن كان وطنه وادى النيل عار عليه أن يسلمه لسواه ويعيش حقيراً ذليلا غريبًا فى دياره أجنبيًا فى ربوعه وربوع آبائه وأجداده" ثم "إن أقوى سلاح يتسلح به المطالبون بحرية بلادهم المخاطرون بأنفسهم حبًا فى إنقاذ أوطانهم وإعلاء شأن معاهدهم هو الاتحاد. فهذا السلاح المتين كان سلاح . . الأمم الحرة، ويكون سلاح المصريين إن أرادوا عزاً ورفاهية وحرية واستقلالا"، ثم "إذا اتحد اليوم العالم الإسلامى اتحاداً سياسيًا فإنما اتحاده ضد الإنجليز، وهم يعلمون ذلك علم اليقين، فطالما طعنوا على جلالة الخليفة الطعن القبيح وطالما دسوا ضد الخلافة الدسائس" ثم "مسألة مصر هى مسألة إسلامية محضة، لأن مصر بوضعها الجغرافى وبتقدم شعبها قد أصبحت مركز الإسلام وروحه، وبامتلاكها تصير انكلترا الدولة السائدة على العالم الإسلامى كله . . وإنى لا أبالغ إذا قلت إن امتلاك انكلترا يهيج العالم الإسلامى، ويصير من جهة أخرى ضربة قاضية على الدولة العثمانية". ثم هو فى إحدى خطبه المشهورة بمناسبة الاحتفال بعيد جلوس السلطان العثمانى فى ٣١ أغسطس سنة ١٨٩٦، وقد احتواها أحد أجزاء الكتاب الذى جمع خطبه وأحاديثه ورسائله، يقول: إنى إذا خاطبت فى ختام كلامى، فإنما أخاطب إخوانى المصريين، وأرجو منهم بإلحاح أن لا يتلفتوا لنفاق المنافقين ولا أقوال الأعداء وليستمروا على التمسك بحب الدولة والإخلاص لها، فإن مصر بدونها ضائعة لا محالة، ولا سبيل لنصرتنا إلا إذا تمسكنا بها بصفتنا مصريين وطنيين، واحترامنا لسلطانها الذى هو سيدنا وخليفتنا نحن المسلمين، فقولوا معى بصوت الوفاء. ليعيش السلطان عبد الحميد خليفة المسلمين وسلكان العثمانيين، ولتعش دولة آل عثمان، ولتعش الحرية فى الإسلام".

وثمة فكرة أخرى، إلى جانب (الوطن القومى) المحرر من الاحتلال البريطانى البغيض، والذى يدين بالولاء الصادق للدولة العثمانية - دولة الخلافة الإسلامية - هى أن تسود حكم صالح هذا الوكن القومى على أساس (دستور) يقوم بمقتضاه "مجلس نيابى تكون له السلطة التشريعية الكبرى". فروجت جريدته (اللواء) الدعوة إلى الدستور، لأنه - كما قال - "الأنشودة التى يجب أن يترنم بها المصريون بعد طلب الاستقلال، وسواء كان سابقًا أم لاحقًا لتخليص البلاد من رق الاحتلال، فإنه الضمانة الوحيدة والكفاية الصحيحة لسلامة القوانين والحرية الخاصة والعامة" وقد نهضت (اللواء) بالدعوة إلى الدستور منذ بداية ظهوره، ولقد تلاقت هذه الفكرة، فكرة قيام الدستور، مع الفكرة التى أخذت تذيع وقتئذٍ فى طرابلس الغرب، شأنها فى ذلك شأن سائر ولايات الدولة، عن ضرورة إرجاع دستور سنة ١٨٧٦، الذى استطاع وقتئذٍ مدحت باشا "أبو الأحرار" وأحد كبار زعماء (تركيا الفتاة) أن ينتزعه من السلطان عبد الحميد ثمنًا لاعتلائه أريكة السلطنة؛ ثم ضاع أثره بعد أقل من عامين من صدوره، ونشط العثمانيون الأحرار، جماعة (تركيا الفتاة) يطالبون (الآن) بإرجاعه. ووجه الفرق بين الدعوتين أن مصطفى كامل يدعو إلى دستور لإقامة الحكم الشورى فى مصر، بينما يدعو أنصار (تركيا الفتاة) إلى دستور لإقامة هذا النوع من الحكم فى الدولة العثمانية، أى أن يقوم بعاصمة السلطنة (برلمان) يجمع ممثلين عن شعوب الدولة فى مختلف ولاياتها. وفى طرابلس الغرب، كما فى سائر ولايات الدولة، كانت نفوس الأحرار متعطشة للحياة "الدستورية" والأذهان مهيأة لقبول إعلان الدستور الذى ساد الاعتقاد بين الشباب الطرابلسى المثقف والمتمسك ببقاء الدولة العثمانية - دولة الخلافة الإسلامية دائمًا - بأنه البلسم الذى صار لا غنى عنه لشفاء كل الأدواء التى تشكو منها الدولة؛ والذى يحفظ - لذلك عليها حياتها.

مرحلة جديدة: إعلان الدستور العثمانى سنة (١٩٠٨)

وأما أن الدولة - ونقصد الدولة العثمانية دائمًا، وهى حقيقة كبرى فى ذهن بشير السعداوى فى ذلك الحين - كانت تشكو العلل والأدواء، بل واشتدت العلة عليها حتى باتت تطلب مبضع الجراح كى يستأصل الداء. فقد ثبت يقين السعداوى به، بسبب ما صار يلاحظه من مظاهر العلة وهو فى عداد موظفى الحكومة فى الخمس، فقد ذكرنا شيئًا عن نوع العمل الذى كان يقوم به، وكيف تسنى له بادئ ذى بدء أن يلتحق بخدمة الحكومة - أو بخدمة الدولة، بالمعنى الذى يسيطر على ذهنه، ولكننا لم نذكر أن السبب الذى حال دون استخدامه (مأمور أعشار) هو أو المتصرف العثمانى (خلوصى بك) سبق أن قبض عشرين جنيهًا ذهبيًا من أحد الأفراد هو - المرحوم صالح الرمالى - لتعيينه فى هذه الوظيفة. ولقد ذكرنا كيف أن الموظفين العرب كانوا يخشون (المحقق)، لأن التحقيقات كانت باللغة التركية، ولكنا لم نذكر أن بشيراً وقد لمس بنفسه (كمحقق) خطورة بقاء التحقيقات باللغة التركية حاول أن يبين للمسئولين أن النظام المعمول به لا يكفل إجراء العدالة حيث كان يترتب على أى تحريف غير مقصود ولو كان طفيفًا فى نقل أسئلة المحققين وأجوبة المتهمين من العربية إلى التركية وبالعكس، تحوير فى وصف الاتهام، قد يكون لصاحل المتهم أو فى غير صالحه، ولكن من الواجب تجنبه فى كلا الحالين تحقيقًا للعدالة. ولم يؤخذ وقتئذٍ بنصح بشير الن ثقيلة. سعداوى.

وقد لا يكون الأهلون فى طرابلس الغرب من الذين اشتدت نقمتهم وقتئذٍ على الحكومة - العثمانية - القائمة فى بلادهم، لأن وطأة هذه الحكومة عليهم لم تكن شديدة بالدرجة التى قاست منها بعض الولايات الأخرى فى الدولة. ومما لاجدال فيه أن الحياة فى (الخمس) كانت هادئة مستقرة. ولا يشكو الأهلون عمومًا من قسوة الضرائب، أو التجنيد، فالثابت أن (الدولة) قد خففت عنهم وطأة الضرائب، وأعفت الطرابلسيين (الليبيين) من الخدمة

العسكرية، أضف إلى هذا أن (الدولة) قد تنبهت إلى ضرورة العناية بالتعليم، ولو أنها تستطع أن تسير فى طريق نشر العلوم والمعارف إلا بخطوات ثقيلة، ولكن الشعور السائد بين أهل (الخمس) وسائر أهل البلاد كان أن الإصلاح قد بات ضروريًا، حتى يستتب الأمن، ويستقر الزراع فى أراضيهم، ويطمئن الناس على أرواحهم وأموالهم من بطش كبار الرؤساء فى الدواخل على وجه الخصوص، واعتقد الكثيرون أن إعلان الدستور هو السبيل الوحيد للإصلاح الذى يكفل تحقيق كل هذه الأمور، وأن إعلان الدستور - لذلك - ضرورى لأن يستمر بقاء الدولة، فيحفظها الإصلاح من الانهيار، ولا يعتدى عليها المعتدون، وفى نظر بشير السعداوى دائمًا كان الاجتراء على الدولة صنو الاجترار على "الإسلام" وموئل خلافة المسلمين.

ونزايد اعتناق السعداوى لفكرة وجوب إعلان الدستور، وإنهاء عهد الطغيان الحميدى، بسبب ما صار ينشره الداعون إلى (الانقلاب العثمانى) من آراء ومبادئ يفسرون بها دعوتهم ويبنونها عليها، وبسبب ما صاروا يذيعونه كذلك عن مخازى الحكم القائم، الذى يفرض سيطرة السلطان الاستبدادية على شعوب الدولة، بينما يجيز "للمشعوذين" وفاسدى الضمائر أن يستطيروا - بدورهم - على هذا السلطان المستبد الغاشم مما انتفت به كل أسباب الحياة الحرة الكريمة، وجعل الدولة تتعثر فى إدارة شئون الحكم، وتوشك على الانحلال الشريع. وتأثر فكر بشير السعداوى أكثر ما تأثر من هذه الناحية، بنوعين من القراءة: قراءة نشرات جدية تبسط آراء الداعين إلى إعلان الدستور، ثم قراءة مقالات من النقد الهجائى فى إظهار فساد بطانة السلطان عبد الحميد وحاشيته. وكان من النوع الأول: نشرة أسبوعية يصدرها من باريس أحمد رضا بك - وكان من الأحرار المنفيين بها - ثم أصبح رئيس مجلس النواب العثمانى بعد إعلان الدستور. وقد حاول محمد رضا بك فى هذه النشرة إظهار مفاسد الحكم التى ترتب عليها انتشار الفوضى فى كل أعمال الحكومة فى الآستانة وفى الولايات، وغرضه أن تستيقظ الأذهان للقيام

بحركة انقلاب. وكانت هذه النشرة التى ظلت تصدر حتى إعلان الدستور العثمانى، تأتى إلى طبيب عثمانى مبعد من قبل الحكومة العثمانية إلى طرابلس الغرب، ويتولى وقتئذٍ منصب طبيب البلدية فى (الخمس) هو الدكتور سليمان بك، ومن هذا الطبيب كان بشير السعداوى يقرأ هذه النشرة.

وأما نوع القراءة الثانى، فلا يزال بشير السعداوى يذكر هجاء السيد عبد الله نديم للشيخ أبى الهدى الصيادى، وهو سورى من حلب، نال حظوة كبيرة لدى السلطان عبد الحميد عن طريق الزلفى إليه كمفسر لأحلامه، حتى صار يلقب تارة بسيد العرب، وأخرى بحامى العثمانيين، ,ثالثة بمستشار الملك، ولم يعرق فيه النديم إلا مشعوذًا أفوكًا يجب أن يتحرر السلطان من نفوذ عليه. وكان على السيد جمال الدين الأفغانى الذى عرف النديم وصار يقدره ويؤثره قبل ذلك سنوات فى مصر. وقد لحق الأفغانى بصاحبه النديم بعد وفاة هذا الأخير بشهور معدودات، وأما الكتاب الذى أصدره عبد الله نديم فى هجاء أبى الهدى الصيادى، فقد أسماه (المسامير) وطبعه فى الآستانة، وصادرت الحكومة العثمانية هذا الكتاب، فبلغ ثمن النسخة الواحدة جنيهًا ذهبيًا. وكتب عبد الله نديم (المسامير) فى شكل "رواية"، وينة بالرسوم. ولا يزال بشير السعداوى يذكر حوادث هذه "الرواية" وعبارات بأكملها من الحوار الذى يدور بين رجل يصادف الشيطان وهو ستأعب للرحيل من "دار الدنيا" ومفارقة البشر لأنه وجد بين هؤلاء شيطانًا فاقه لؤمًا وخبثًا وصار يخشى على نفسه شر الفتنة منه، وبين الشيطان الذى يقص عليه قصة غريمه هذا من مولده - على يد الشيطان نفسه - إلى أن صار بخداعه وشعوذته صاحب مكانة كبيرة فى الدولة. وأما غريم الشيطان الذى نشر النديم صورته لهو أبو الهدى الصيادى. وقد كتب تحب رسمه يتبين من الشعر، إليك نظمها:

هذا الذى قد كان قبل دخوله　　دار السعادة مقرفًا شحاذًا

واليوم صورته تبين أنه أضحى بأقبح حيلة أستاذاً

وفى نهاية القصة يحذر النديم الأمة من الانسياق وراء الدحالين والمشعوذين وتأثر أولى الأمر بأقوالهم، واستماعهم لأكاذيبهم، وبأن الواجب يقتضى الحكام أن يدفعوا عنهم أمثال هؤلاء الخونة ويقوصهم، حتى تستقيم أمور الدولة. وظل بشير السعداوى معجبًا بالسيد عبد الله نديم، ويحرص على التنقيب عن آثارة، فقرأ وهو بالمهجر فى بيروت بعد ذلك سنوات (جريدة الأستاذ) فى كتاب مضموم وقد استهوى البشير الأسلوب الذى عالج به عبد الله نديم فى (الأستاذ) مائل الإصلاح الاجتماعى، والدعوة لنشر التعليم ومحاربة الجهل، والدفاع عن الشرق بدحض مفتريات الغربيين عليه، ثم تنبيه الأذهان إلى نشاط التبشير بالمسيحية فى البلاد، وقد حمل عبد الله نديم على جهود المبشرين حملة كبيرة.

وفى سنة ١٣٢١ هـ (١٩٠٣) نشر كتاب (طبائع الاستبداد فى مصارع الاستعباد) للشيخ عبد الرحمن الكواكبى، وقد وصفه الشيخ بأنه (كلمات حق وصيحة فى واد، إن ذهبت اليوم مع الريح، لقد تذهب غدًا بالأوتاد). وكان الكواكبى قد نشر مقالات عدة عن الاستبداد فى الصحف المصرية، فجمعت هذه - الآن - "مع بعض الإضافات" وصدرت فى هذا الكتاب، وأغفل اسم صاحبه، فاستعيض عنه بأن محرر (الكلمات) هو (الرحالة. ك). ولقد لقيت (طبائع الاستبداد) اهتمامًا كبيراً، وانتشر الكتاب انتشاراً واسعًا. والثابت أن نسخًا كثيرة من هذا الكتاب قد هربت إلى بلاد الشام، ولم يكن معروفًا أن نسخًا أخرى منه وجدت طريقها كذلك إلى طرابلس الغرب ولكن (طبائع الاستبداد) كان من الكتاب التى تركت أثراً عميقًا فى نفس بشير السعداوى من حيث إن كراهية الاستبداد صارت متأصلة فى نفسه، وازداد إيمانه بوجوب إنشاء الحياة الحرة الديمقراطية والتعجيل بإعلان الدستور، حتى تستطيع الدولة موئل خلافة المسلمين أن تحفظ كيانها من جهة، وأن تنهض بالشعوب

الإسلامية من جهة أخرى. ولقد اجتهد بشير السعداوى ليقف على شيء من سيرة عبد الرحمن الكواكبى، الذى كان قد توفى حوالى هذا الوقت (١٣٢٠ هـ) فعرف عنه أنه اشتهر بكراهيته للاستبداد والظلم كراهية أكسبته غضب رؤسائه من "أرباب المناصب العليا" عندما كان موظفًا فى حلب، حيث مولده ومكان نشأته، فكان نصيبه الحبس والتجريد من أمواله، حتى اضطر عندما أطلق سراحه (١٨٩٨) إلى مغادرة الشام إلى مصر، ثم عرف بشير عن الكواكبى كذلك أنه كان عطوفًا على الضعفاء حتى سماه الحلبيون "أبا الضعفاء". وإلى جانب كراهيته للاستبداد والظلم، وحبه لحرية القول والفكر، وعطفه على الضعفاء، عرف عنه بشير السعداوى أنه كان عميق الإيمان بمستقبل الإسلام والأمة العربية، وأنه بسبب إسلاميته العظيمة كان يكره أى نوع من أنواع التعصب، ويعتبر أن "الوطنية فوق الفوارق الدينية".

وإذا تركنا جانبًا الدروس التي تلقاها بشير السعداوى فى الاجتماع والسياسة من قراءاته الأولى لابن خلدون - وقد ذكرنا مدى تأثره بقراءة المقدمة - كانت المقالات التى احتواها كتاب (طبائع الاستبداد) أول محاولة بالنسبة لما وعاه ذهن بشير السعداوى فى صدر شبابه، عن بسط فكرات سياسية معينة فى أسلوب من البحث رتيب، حول مسألة سياسية بذاتها: سبب الاستبداد وأثره فى الأمم والشعوب. وكتاب (طبائع الاستبداد) من هذه الناحية دراسة سياسية متعددة الجوانب. ولو أنها تدور حول موضوع الاستبداد فحسب ذلك أن الكواكبى قد تحدث بعد تحريف الاستبداد، عن علاقة الاستبداد بالدين، والعلم والمجد، والمال، والأخلاق، والتربية، والترقى، ثم أفرد قسمًا خاصًا من بحثه للكلام عن طرق التخلص منه. فعالج فى شكل رتيب أنواع الحكومات من الاستبدادية إلى الشورية، ومن عهد الوثنية إلى عهد الإسلام، وتكلم عن المال والاقتصاد، وعن ضرورة العلم والتربية الصحيحة لنهضة الأمم، واغتنم الكلام فى موضوع الاستبداد والترقى، حتى يوجه خطابًا طويلا إلى "الشرق" عمومًا وغلى الإسلام خصوصًا، يذكره

بهفـواته وأخطائه، ويستـنهضه لإصـلاح حاله، ونفض غـبار الخـمول عنه، فيقول: "يا قوم وقاكم الله من الشر، أنتم بعيدون عن مفاخر الإبداع وشرف القدوة مبتلون بداء التقليد والتـبعية فى كل فكر وعمل وبداء الحرص على كل عتيق . . يا قوم - عافـاكم الله - إلى متى هذا النوم، وإلى متى هذا التقلب على فـراش الناس ووسادة اليـأس . . يا قوم أعيـذكم بالله من فـساد الرأى وضياع الحزم، وفقد الثقـة بالنفس وترك الإدارة للغير. فهل ترون أثراً للرشد فى أن يوكل الإنسان عنه وكيلا ويطلق له التـصرف فى ماله وأهله، والتحكم فى حياته وشرفه، والتأثيـر على دينه وفكره مع تسليف هذا الوكيل العفو عن كل عـبث وخيـانة وإسراف وإتلاف، أم ترون أن هـذا نوع من الجنة به يظلم الإنسان نفسه. بلى إن الله لا يظلم الناس شيـئًا ولكن الناس أنفسهم يظلمون . . وغلى متى هذا التواكل. هل طاب لكم هذا الذل؟ وتودون لـو تصحبونه فى القبور . . يا قوم - رحمكم الله - ما هذا الحرص على حـياة تعيشه دنيئة لا تملكونها ساعة . . يا قوم - حماكم الله - قـد جاءتكم المستمتعون من كل حدب ينسلون فـإن وجدوكم إيقاظًا عـاملوكم كما يتـعامل الجيران ويتـجاهل الأقـران. وإن وجدوكم رقـودًا لا تشـعرون سلبـوا أمـوالكم وزاحمـوا على أرضكم وتحيلوا على تذليلكم وربطكم واتخـاذكم كالأنعام . . يا قوم - هون الله مصابكم - تشكون من الجهل ولا تنفقـون على التعليم نصف ما تصرفون على التـدخـين، تشكون مـن مالحـكام وهم اليـوم منكم فـلا تسـعـون فى إصـلاحكم، تشكـون فـقـد الرابطة ولكم روابط من وجـوه لا تفكرون فى أحكامهـا . . ألم يخلقكم أحراراً لا يثقلكم غـير النور والنسيم فـأبيتم إلا أن تحملوا على عواتقكم ظلم الضـعفاء وقهر الأقوياء . . . مـا هذا التفاوت بين أقرادكمقد خلقكم ربكم أكفاء . . لال ليفضل بعضكم بعضًا إلا بالفضيلة. لا ربوبيـة بينكم ولا عـبوديـة . . لفظتكم الأرض لتـسكنوا على ظهـرها وأنتم حريصون على أن تنغمسوا فى جـوفها . . يا قوم - وأعنى منكم المسلمين - قال نبيكم الكريم عليه أفضل الصلاة والـتسليم: "لتأمرون بالمعروف ولتنهون

عن المنكر أو ليستعملن الله عليكم شراركم فليسوا منكم سوء العذاب" .. يا قوم - وأعنى بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين - أدعوكم إلى تناسى الآسيات والأحقاد، وما جناه الآباء والأجداد. فقد كفى ما فعل ذلك على أيدى المثيرين .. "

وعرف بشير السعداوى أن صاحب (طبائع الاستبداد) كان كثير الأسفار، فقد خرج من مصر بعد مجيئه إليها من الشام بعامين (١٩٠٠) سائحًا فى بلاد الصومان وزنجبار، وتغلغل فى داخل اليمن، وبعد إقامة طويلة فى مكة عاد إلى القاهرة، حيث توفى بها. وأصدر قبل (طبائع الاستبداد) كتابه الآخر المشهور (أم القرى: أى ضبط مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الإسلامية) وهو مؤتمر تخيل السيد عبد الرحمن الكواكبى أنه انعقد فى مكة المكرمة سنة ١٣١٦ هـ. قص السيد قصته على لسان "الرحالة المتكنى بالسيد الفراتى" وقال فى سبب انعقاد هذا المؤتمر: "إنه لما كان عهدنا هذا وهو أوائل القرن الرابع عشر عهداً عم فيه الخلل والضعف كافة المسلمين، وكان من سنة الله فى خلقه إذ جعل لكل شىء سببًا فلابد لهذا الخلل الطارئ والضعف النازل من أسباب ظاهرية غير سر القدر الخفى عن البشر. فدعت الجمعية بعض أفاضل العلماء والسراة والكتاب السياسيين للبحث عن أسباب ذلكل والتنقيب عن أفضل الوسائل للنهضة الإسلامية. فأخذوا ينشرون آراءهم فى ذلك .. ثم بدا إلى أن أسعى فى توسيع هذا المسعى بعقد جمعية من سراة الإسلام فى مهد الهداية أعنى مكة المكرمة". فانعقد المؤتمر فى شهر ذى القعدة ١٣١٦ وحضره اثنان وعشرون شخصًا يمثلون العلماء والفقهاء فى اثنين وعشرين قطرًا من أقطار الإسلام أسفرت اجتماعاتهم التى استغرقت أكثر من اثنتى عشرة جلسة رسمية عن اتفاقهم على تشكيل للجمعية غايتها بعث الإسلام. والكتاب - كما يستبين من الموضعات التى تناولها "المؤتمر" المزعوم - يشرح فى تحليل دقيق أسباب "الانحطاط" الذى ألم بالعالم الإسلامى عمومًا وبالعالم العربى خصوصًا والوسائل التى يمكن بها معالجة

"التقهقر" والنهوض بالأمم الإسلامية والعربية. وتعرض الكواكبى فى بحوثه هذه لمسألتى (الاستبداد) و (الحرية) والعلاقة بين الاستبداد وجهل الأمراء الحاكمين وحرصهم عليه. وكمان واضحًا - على نحو ما لمس بشير السعداوى من قراءته (لأم القرى) و من قبله، أن النهضة الإسلامية أو بعث وإحياء العالم الإسلامى الذى يدعو إليه عبد الرحمن الكواكبى، إنما تقوم فى نظر السيد الكواكبى، على أساسين لا ندحة عنهما إطلاقًا: محاربة الجهل المتفشى بين علماء الدين وسواد الشعب على السواء، وقد أسهب فى شرح هذه المسألة. فلا يكاد يخلو فصل من فصول الكتاب - أو على الأصح جلسة من جلسات المؤتمر - من ذكر شىء عن العلماء المدلسين وإفسادهم للدين. والبدع الدينية. والاجتهاد. والتصوف، والوعظ. إلى غير ذلك. ولقد تناول الكواكبى بعض هذه المسائل التى أثراها فى (أم القرى) مرة ثانية فى كتابه (طبائع الاستبداد). وأما الأساس الثانى لنهضة العالم الإسلامى، فهو أن يستعيد العرب مركزهم الطبيعى فى تسيير دفة الإسلام. ولقد صادفت هذه الدعوة هوى من نفس بشير السعداوى الذى ذكرنا أن الشعور بالعزة الإسلامية العربية كان متأصلا فى نفسه. وكان لهذه الدعوة أثر واضح فى تفكيره من الفترة التى تلت مباشرة إعلان الدستور العثمانى، والتى سبقت الغزو الإيطالى لطرابلس على نحو ما سوف نذكره.

ولقد كانت هذه الدعوة لأن يتسلم العرب مقاليد الإسلام، السبب الذى جعل الدولة العثمانية تبادر إلى "ابتياع" كل النسخ التى طبعت من (أم القرى) فى المرة الأولى، وكان بعد أن طبع هذا الكتاب مرات أخرى عقب إعلان الدستور العثمانى، أن "أقبل المتأدبون على اقتنائه إقبالا عظيمًا". ولقد كانت الشورى الإسلامية من أهم الموضوعات التى تناولها الكواكبى فى (أم القرى)، ثم راح يعالجها مرة أخرى فى (طبائع الاستبداد) الذى صدر بعد كتابه الأول، وعرفنا أنه كان أولا فى صورة مقالات نشرتها الصحف فى مصر، ولم تلق عنتًا وإرهاقًا من الدولة، مثل ما لقى كتابه (أم القرى). ولقد

أراد الكواكبى من الكلام عن الشورى الإسلامية إظهار الحقيقة التالية، وهى أنه "عند التدقيق فى كل فرع من الدولة الإسلامية الماضية والحاضرة، بل فى ترجمة كل فرد من الملوك والأمراء، بل فى حال كل ذى عائلة أو كل إنسان فرد تجد الصلاح والفساد دائرتين مع سنة الاستشارة أو الاستقلال فى الرأى". وثمة مسألة أخرى دعا إليها الكواكبى فى (أم القرى)، ثم عاود بحثها فى (طبائع الاستبداد) عند الكلام عن ما سماه بالانتظام العام: "والمراد بالانتظام العام معيشة الاشتراك العمومى التى جاء بها الإسلام. ولكن لم تدم أكثر من قرنين كان فيهما المسلمون لا يجدون من يدفعون لهم الصدقات والكفارات، وذلك أن الإسلامية كما أسست حكومة ديمقراطية . . . أسست أيضًا أصول هذه المعيشة التى يتمنى ما هو من هوعها أغلب العالم المتدن الأفرنجى . . وكذلك تركت الإسلامية معظم الأرضاى الزراعية ملكًا لهامة الأمة يستنبتها ويتمتع بخيراتها العاملون فيها فقط وليس عليهم غير العشر أو الخراج الذى لا يجوز أن يتجاوز الخمس لبيت المال". وكان الكواكبى قد كتب قبل ذلك فى (أم القرى): "ومن أعظم أسباب فقر الأمة أن شريعتنا منبية على أن فى أموال الأغنياء حقًا معلومًا للبائس والمحروم، فيؤخذ من الأغنياء ويوزع على الفقراء. وهذه الحكومة الإسلامية قد قلبت الموضوع، فصارت تجبى الأموال من الفقراء والمساكين، وتبذلها للأغنياء وتحابى بها المسرفين والسفهاء . . إن المسلمين من حيث مجموعهم أغنياء لا يعوزهم المال اللازم للتدرج فى العلوم . . لأن فريضة الزكاة على مالكى النصاب والكفارات المالية جاعلة لفقراء الأمة وبعض المصاريف العمومية نصيبًا غير قليل من مال الأغنياء، بحيث إذا عاش المسلمون مسلمين حقيقة، أمنوا الفقر وعاشوا عيشة الاشتراك العمومى المنتظم التى يتمنى ما هو من نوعها أغلب العالم المتمدن الإفرنجى وهم لم يهتدوا بعد لطريقة نيلها، مع أنه تسعى وراء ذلك منهم جمعيات وعصبيات مكونة من ملايين باسم (كومون وفنيان، ونيهلست وسيوسيالست) كلها تطلب التساوى أو التقارب فى الحقوق والحالة

المعاشية. ذلك التساوى والتقارب المتقربين فى الإسلامية دينًا بوسيلة انتزاع الزكاة والكفارات . . ".

على أن الجديد فى تفكير الكواكبى، والذى استرعى نظر بشير السعداوى، هو محاولته أن يفرق بين الدعوة لإحياء العالم الإسلامى، وإنشاء الرابطة أو الجامعة الإسلامية التى تحقق - فى نظر الداعين إليها - البعث الإسلامى نفسه، وبين الدعوة لنهضة الأمة العربية، واستثارة العزة العربية فى نفوس الأمم العربية التى يفرق بينها وبين سائر الأقوام الإسلامية، بما فى ذلك الأتراك أنفسهم، اختلاف الجنس. وقد أنبنت على التفرقة بين الاتحاد الإسلامى، والنهوض العربى، تفرقة أخرى بين أخلاقه الإسلامية فى وضعها الراهن وقتئذ وقد احتوتها الدولة العثمانية، وبين ما يجب أن يكون عليه وضعها، بما يتفق والصلة الوثيقة بين الإسلامية والدور الذى قام به العرب فى انتشارها ودعم أركانها، الأمر الذى يوجب أن يسترد العرب الخلافة من العثمانيين، فينصبوا خليفة من قريش. وقد دعا الكواكبى لإقامة الخلافة العربى فى قريش صراحة فى (أم القرى) عندما راح يتكلم بإسهاب عن "إعزاز الدين بالعرب، دون دولة آل عثمان وملوكها العظام"، وطلب "أقامة خليفة عربى قريشى مستجمع للشرائط فى مكة".

وكان مما لاحظه بشير السعداوى أن هذا الأسلوب الجديد فى التفكير، إن اتفق وما تغلغل فى نفسه من الإيمان بالعزة الإسلامية والشعور بالعزة العربية، ولم يكن يختلف فى الوقت نفسه عن الآراء التى نادى بها كل أولئك الذين تأثر بآرائهم من الكتاب والفلاسفة مثل الأستاذ الإمام خصوصًا، الشيخ محمد عبده، والسيد جمال الدين الأفغانى، فقد كان يناقض ما ذهب إليه الأفغانى ومحمد عبده، الأول من حيث إنه يرى ضرورة توحيد العالم الإسلامى تحت حكم خليفة واحد، سواء أكان هذا الخليفة عربيًا أم تركيًا أم مصريًا، أم غير ذلك، طالما كان له من القوة ما يجعله قادرًا لا على الاحتفاظ

بسلطانه فى عقر داره فحسب، بل ومعاونة الأمة الإسلامية على النهوض، حتى تبعث بعثًا جديداً تتحرر بفضله من كل القيود المعرقة لتقدمها الداخلى، حتى يتسنى لها أن تدفع عن نفسها شر الاستعمار الأجنبى. والثانى من حيث إنه يرى من شرائط بعث الإسلامية من الناحية السياسية أن تبقى الخلافة عثمانية وأن يقوى ويشتد ساعد هذه الخلافة العثمانية كمناط آمال المسلمين، فكان وجه الخلاف بين هذين وبين عبد الرحمن الكواكبى، أنه - كما رأينا - يرفض أن تظل الخلافة "عثمانية" ويريدها أن تكون "عربية".

ولقد كان لفكرة الخلافة "العربية" التى ابتدعها عبد الرحمن الكواكبى أثر فى تطور الفكرة السياسية عند بشير السعداوى؛ ولو أن هذا الأثر قد ظل وقتئذ مختفيًا حيث لا يزال يسيطر على فكرة فكرتا إعزاز الدولة العثمانية القائمة بالخلافة الإسلامية، ووجوب إعلان الدستور، وتلك كانت مهمة الذين يريدون "الإصلاح" للدولة حتى تتدعم أركانها، ويرتفع شأنها. فتتمكن بدورها من حماية الإسلام، وإعزاز المسلمين.

وعلى ذلك فقد ترقب بشير السعداوى، فى طرابلس الغرب، كما ترقب غيره من الأحرار والمفكرين فى سائر ولايات الدولة، بزوغ فجر الحرية بإعلان هذا الدستور الذى طال انتظاره كثيراً، حتى إذا جاءت الأنباء أخيراً بأن الدستور قد أعلن (فى ٢٣ يوليه سنة ١٩٠٨)، كان لذلك رنة فرح عظيمة، واستبشر بشير السعداوى خيراً كما استبشر العرب جميعًا فى كل أنحاء الدولة خيراً بإعلان الدستور، واعتقد بشير السعداوى - على وجه الخصوص - أن بإعلان الدستور قد تحققت المساواة بين العرب وغيرهم من الأجناس التى تضمنها الدولة وبين الأتراك أنفسهم، فصاروا جميعًا عثمانيين متساوين فى الحقوق والواجبات. وأعتقد أن إعلان الدستور إيذان بأن آفاقًا جديدة من العلم والمعرفة قد انفتحت أمام العقول الظمأى إلى المعرفة و "التنور" فلا قيد على التفكير بعد الدستور. ولا حجر على حرية الرأى، ولا حائل يحول دون الإصلاح الاجتماعى للنهوض بالعرب ورفع شأن الإسلام.

وكان بشير السعداوى من الذين اشتركوا بنصيب كبير فى الاحتفالات التى أقيمت فى (الخمس) بمناسبة إعلان الدستور، وشأن (الخمس) فى ذلك شأن سائر المدن الهامة فى هذه الولاية العثمانية - طرابلس الغرب - وقد خطب فى احتفال الخمس نورى السعداوى، وأما بشير فقد ألقى قصيدة طويلة، لا يزال يذكر بعض أبياتها، التى - على قلتها - قد تكشف معانيها عن شيء من الانفعالات التى أوجدها إعلان الدستور فى نفسه، إذ يقول:

بشراكم لقد زال الكدر ... والدهر عن وجه العدالة قد سفر

فلتنعمن نفوسكم، فالسوم قد ... ضاءت شموس المجد من قلك الغرر

بالاتحاد والمساواة أبشروا ... فلقد سنا الإسلام واندثر الكدر

وغدا بدستور أساس حكمنا ... من بعد ما قد كان كنزاً مدخر

وفى قوله "من بعد ما قد كان كنزاً مدخر" إشارة إلى حادث إعلان الدستور قبلا فى ديسمبر سنة ١٨٧٦، ثم وأد الحياة النيابية فى الدولة بعد أقل من عامين، واستمرار مطالبة الأحرار - أحرار تركيا الفتاة. (وجماعة الاتحاد والترقى) - بالدستور من ذلك الحين حتى تكللت الجهود بإعلانه. ومن هذه الأبيات القليلة يتبين المعنى الذى كان فى ذهن بشير السعداوى من إعلان الدستور: ضمان العدالة بتقرير المساواة بين شعوب الدولة، فيقوى الإسلام باتحاد هذه الشعوب التى تتألف منها الدولة، والتى صار الدستور أساس الحكم الصالح بينها.

والحقيقة أن بشير السعداوى، شعر وشعر مواطنوه أنهم قد صاروا أحراراً، وأن عهد الكبت والحجر على حريات الفرد قد زال وانقضى إلى غير رجعة، وأنه قد صار من حقهم أن "يتكلموا بحرية". وكان أول رد فعل لهذا الشعور أن توجه هو وبعض مواطنيه الذين رغبوا فى الإصلاح السريع إلى متصرف الخمس وقتئذٍ (عزت باشا) يطلبون طرد عدد من الموظفين الأتراك

obeikandl.com

فى هذا العهد، وثابر بشير السعداوى على قراءتها: (المقتبس) لصاحبها محمد كرد على، و (الحضارة) لعبد الحميد الزهراوى، و (القبس) لصاحبها شكرى العسلى، وغير ذلك. وهذا بطبيعة الحال عدا الصحف والمجلات المصرية مثل (المؤيد) للشيخ على يوسف، (والمنار) للسيد رشيد رضا، (واللواء) الذى تولى تحريره قبل إعلان الدستور بأسابيع قليلة الشيخ عبد العزيز جاويش.

وكان بسبب المثابرة على قراءة هذه الصحف و "درس" ما تكتبه أن انفتحت أمام بشير السعداوى آفاق جديدة فى السياسة الدولية لم يكن له عهد بها من قبل، حتى إنه لم يلبث أن سأل صديقه الشيخ الزقلعى عن السر فى ذلك التغيير الذى طرأ عليه فجعله يشعر بانطلاق تفكيره الذى خرج الآن عن تلك الدائرة المحدودة التى لم تكن تشمل قبل إعلان الدستور سوى الاهتمام بسياسة الدولة وبمصالح مواطنيه المحلية وشئون أسرته، فصار عند تجاوزه هذا النطاق الضيق، يتناول سياسة بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وغيرها من الدول، ويرقب ما يقع من حوادث فى البلقان، ويحاول أن يربط بين ذلك كله وبين مستقبل الدولة العثمانية، وتلك ظاهرة أراد بشير السعداوى أن يشبهها بالموجة السريعة العاتية التى تجرف كل ما أمامها. فعلل الشيخ الزقعلى انطلاق التفكير على هذه الصورة التى وصفها صديقه تعليلا استمده من قوله تعالى: "إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولا". ذلك أن هناك من ذهبوا فى تأويل هذه الأمانة بأنها الخلافة، فلقد كانت أمانة الخلافة قبل إعلان الدستور محصورة فى شخص الخليفة الذى حملها وحده، فلما أعلن الدستور، انتزعت منه الأمة سلطان الخلافة التى صارت موزعة على أبناء الأمة وعلى ذلك فقد وجب عليهم أن يتحملوا مسئولية التفكير فى خير ما يكفل النهوض بأعباء الخلافة. وإن ما يشعر به بشير السعداوى ويسأل الشيخ عن سره لا يعدو - لذلك - أن يكون نصيبه من هذه المسئولية، مسئولية التفكير فى أمانة الخلافة التى صار يحملها هو وسائر أبناء الأمة.

ولكن الانفعالات الشديدة الأولى هذه، لم تلبث حدتها أن انكسرت عندما أخذت تتغلغل فى ذهن السعداوى فكرتان جديدتان، كانتا قد وجدتا طريقهما إليه، قبل إعلان الدستور، بصورة مبهمة، ولكن سرعان ما تم اختمارهما بعد ذهاب نشوة الاحتفال ببزوغ عهد الحرية الجديدة، ولقد كانت هاتان الفكرتان متناقضتين ولو أن مصدرهما واحد حيث إنهما مستحدثتان مما كانت تنشره الصحف والكتب من آراء للأحرار - على قلته - قبل الدستور، ثم ما صارت تنشره بكثرة متزايدة بعد إعلانه. فقد شعر بشير السعداوى بكراهية كبيرة لجماعة (تركيا الفتاة) - أو جمعية الاتحاد والترقى - لاعتقاده أنها تعمل لتقويض عروش الخلافة، وتقوم بتدبير انقلاب لخلع السلطان العثمانى "خليفة المسلمين" وزادت كراهيته لها عندما أطاح انقلاب إبريل ١٩٠٩ بالسلطان عبد الحميد - صاحب الدعوة المشهورة للجامعة الإسلامية - ونقل السلطة إلى أيدى الاتحاديين وقد شارك أكثر المواطنين بشير السعداوى فى شعوره هذا، حتى إن أحداً ما كان يرضى بالانضمام إلى جمعية الاتحاد والترقى التى أنشأت لها فرعًا وقتئذ فى (الخمس) على غرار ما كان لها من فروع فى طرابلس (المركز الرئيسى) والمدن الهامة الأخرى وقد حاول الاتحاديون استمالة أهل البلاد إلى حركتهم، فحضر مصطفى كمال بنفسه إلى طرابلس لهذه الغاية، ولكنه لم يصب نجاحا يذكر، واقترن معنى (تركيا الفتاة) أو (جون تورك - على نحو ما كان يسميها الناس - بالإلحاد فى أذهانهم، وظل الحال على ذلك فترة من الزمن حتى وفد ابنا الشيخ محمد ظافر المدنى إلى طرابلس ومسراته وهما قدرى بك وحسن بك، لإقناع الناس بحسن نوايا الاتحاديون، وإخلاصهم للإسلام ورغبتهم الصحيحة فى الإصلاح. فقبل الأهلون - ومنهم السعداويون الانضمام رويداً رويداً إلى جمعية الاتحاد والترقى.

وكان نورى السعداوى الأخ الأكبر لبشير السعداوى، قد رغب أن يرشح نفسه نائبًا فى البرلمان المزمع انتخابه فى ظل الدستور الجديد، والذى التأم فعلا

فى دار السلطنة فى شهر ديسمبر من العام نفسه، (١٩٠٨): ولكن يثبت أن تدخل كبير الأسرة، الصادق السعداوى فمنع ابن أخيه من أن يرشح نفسه بسبب النفور الذى ذكرنا أنه حصل من ناحية (تركيا الفتاة) ولاعتقاد الكثيرين أن السلطان عبد الحميد لم يكن صادق النية فى الموافقة على إعلان الدستور، وسوف لا يمضى قليل حتى ينقضه، وينكل بالنواب، كما سبق أن فعل فى بداية حكمه.

وأما الفكرة الثانية التى ذكرنا أنها صارت متغلغلة فى ذهن بشير السعداوى بعد الانقلاب العثمانى، فكانت (الفكرة العربية) القائمة على إنشاء خلافة عربية. ولقد كان لكتابات عبد الرحمن الكواكبى الفضل فى بذر بذورها الأولى فى ذهنه. ولكن لا جدال فى أنه لم تينع هذه الفكرة وتزدهر، إلا بعد أن استبد الاتحاديون بالسلطة، وساروا على سياسة مركزية شديدة بدعوى التغلب على عوامل الانفصال فى الدولة، مع تغليب العنصر الطورانى (التركى) فى الوقت نفسه على كل ما عداه من أجناس الشعوب التى تتألف منها الدولة العثمانية، بما فى ذلك الشعوب العربية. ولقد كان إصرار الاتحاديين على تأسيس (المركزية) القوية التى تخضع ولايات الدولة لإدارة الحكومة فى استانبول من جهة، وعملهم على (تتريك) الشعوب الخاضعة للدولة، وتسويد العنصر (الطورانى) منشأ رد الفعل الذى حدث بين الأقوام العربية خصوصًا بعد الانقلاب العثمانى ضد الاتحاديين ونقمتهم عليهم، ثم تأليف الجمعيات والنوادى العربية السرية والعلنية التى صارت تدعو للإصلاح الحكومى فى الدولة على أساس (اللامركزية الإدارية)، بالصورة التى تحفظ للشعوب العربية كيانها وتمنع عنها خطر الحركة الطورانية البغيضة. فانبرى الكتاب الأحرار من العرب الذين تألفت منهم هذه الجمعيات والمنتديات السياسية والأدبية يروجون للإصلاح (اللامركزى) الذى يريدونه فى الصحف النشرات المختلفة العربية، والتى كان يؤيد منها هذه الحركة العربية خصوصًا

الصحف التى ذكرناها سابقًا والتى وجدت طريقها إلى طرابلس الغرب، وكان بشير السعداوى أحد قرائها والمشتركين فيها. ولا يزال السعداوى يذكر الصحف (السورية) التى دعت لهذا "الإصلاح" وهى التى أشرنا إليها. وكان من دعاة "الإصلاح" السوريين هؤلاء، رئيس أول محكمة نظامية "ابتدائية" تشكلت فى الخمس، الأستاذ توفيق سهلب، وأصله من طرابلس الشام، وكان حضوره إلى الخمس بعد إعلان الدستور. وعلاوة على ذلك فقد شهدت هذه الفترة، نتيجة لنمو الشعور الوطنى والوعى القومى - فى نطاق دولة الخلافة الإسلامية دائمًا - ظهور عدد من الصحف فى طرابلس الغرب ذاتها، مثل (الترقى) و (المرصاد) و (الكشاف) التى صدرت جميعها بمدينة طرابلس. وقد نقلت هذه الصحف الفكرة العربية على نحو ما كانت تنادى به حركة السوريين العربية.

ولقد كان من الآثار المباشرة لهذه الدعوة للإصلاح الإدارى اللامركزى أن أعد بشير السعداوى ذلك البحث الذى سبقت الإشارة إليه عن مساوئ الاستمرار فى إجراء التحقيقات والمحاكمات باللغة التركية. حيث كان يستلزم استخدام هذه اللغة نقل التحقيقات والمرافعات من اللغة العربية إلى التركية وبالعكس، فكان يحدث كثيراً بسبب ذلك تحريف فى صورة الوقائع طالما ترتب عليه تبرئة مذنب أو إدانة برىء. وقد نشرت هذا البحث وقتئذٍ جريدة (الكشاف) الطرابلسية لصاحبها محمد النائب.

ولكن الذى استرعى نظر بشير السعداوى وقتئذٍ، كان الفكرة التى راح ينادى بها عبد الحميد الزهراوى، والجماعة الذين تألفت منهم القحطانية التى تكونت فى الآستانة فى أواخر عام ١٩٠٩، وقد دعا هؤلاء إلى إنشاء الدولة العثمانية، دولة ذات تاج مزدوج على غرار إميراطورية النمسا والمجر، على اعتبار أن الدولة العثمانية هى فى حقيقة الأمر إمبراطورية عربية تركية، فيجب - لذلك - أن تتألف من أجزائها العربية مملكة "عربية" واحدة، لها برلمانها

الخاص، وإدارتها المحلية الخاصة بها، ولها لغتها العربية، فيكون لها "تاج" عربى منفصل عن التاج التركى. ويجمع السلطان العثمانى هذين التاجين على نحو ما يفعل عاهل إمبرطورية النمسا والمجر من أسرة الهابسبرج المعروفة، ومع أن هذه الفكرة "العربية" كانت منطوية على "إعزاز" العرب، ورفع شأنهم، إلا أنها لم تصادف هوى من نفس بشير السعداوى لأنها أبقت الخلافة فى يد العثمانيين، ولم تستهدف إنشاء خلافة عربية بينما أن بشير السعداوى كان قد بدأ يتأثر بفكرة (الكواكبى) الذى يدعو إلى إقامة خلافة عربية قرشية، وبينما أنه قد صار يشعر بفضل ما صارت تبثه حركة السوريين العربية خصوصًا من آراء- وهى التى تدعو فى جوهرها إلى إحياء القومية العربية على أساس الإصلاح (اللامركزى) - بأن العرب حقوقهم مهضومة، وأن الأتراك قد اغتصبوا هذه الحقوق وأن الواجب يقتضى إنشاء خلافة عربية. ومن قراءات بشير السعداوى فى هذه الفترة، والتى عززت فكرته عن الخلافة العربية، كتاب (استيلائى جهان) وهو سفر ضخم لمؤلف فرنسى منقول من اللغة الفرنسية إلى التركية معناه: (الاستيلاء على الدنيا). يحذر صاحبه قارئيه من الحركة الإسلامية "ويذكر خصوصًا تاريخ السيد محمد بن على السنوسى، مؤسس السنوسية، ثم يصف السنوسية بأنها حركة نهضة وبعث غرضها إخراج الأجانب المستعمرين من إفريقية، وهى حركة قد تأصلت جذورها قبل السنوسية، فلا يلبث العرب فى إفريقية الشمالية أن يتحدوا مع أهل مصر، ثم مع سوريا بعد اجتياز قناة السويس، ويدخل الجميع تركيا فتنضم هذه إليهم ولا يقف الزحف الإسلامى فى أوروبا شىء حتى يصل الزاحفون إلى باريس ويحاصرونها، وعندئذ لا يستطيع الفرنسيون صد هذا السيل المتدفق عليهم وإنقاذ عاصمتهم. وتتكون إمبرطورية إسلامية كبيرة تقضى على حكومات الغرب:

وعلى ذلك فقد تألفت - إن شئت أن تسميها كذلك - شبه جمعية سرية فى الخمس، كان قوامها بشير السعداوى، والشيخ عبد الرحمن

الزقلعى، وأصدقائهما المقربون، فيجتمعون عند بشير السعداوى للمذاكرة فى موضوعات الإصلاح الإدارى (اللامركزى) و "الخلافة العربية" وسياسة الاتحاديين عمومًا. وكان من المترددين على مجلسهم مفتى الخمس وقتئذ الشيخ محمود أبو رخيص. ولو أن بشيرًا ما كان يكشف عن حقيقة رأيه فى هذه المسائل إلا لصديقه الوفى وموضع ثقته الكاملة الشيخ عبد الرحمن الزقلعى. ومع ذلك، فقد كان من بين الذين اختلفوا إلى مجلسهم، رجل من الخمس، يدعى (زروق المقيرفى)، كان من الذين اعتمد عليهم متصرف الخمس الكتور ررشيد بك، فى تسقط الأخبار، لم يلبث أن نقل إلى هذا الأخير، أن السعداوى وزملاءه يدعون لخلافة عربية. ودله على أن الشيخ المفتى ممن يغشون مجالس الجماعة ويعرفون آراءهم. فسأل الدكتور رشيد الشيخ محمودًا عن حقيقة ما بلغه وهو أن هناك جماعة ومنهم الشيخ نفسه، يثابرون على الاجتماع فى بيت السعداوى يتذاكرون فى التهيؤ للمطالبة بخلافة عربية. فخاف الشيخ أبو رخيص خوفًا شديداً، وأبلغ بشيرًوالزقلعى بما حصل له، وانتظر حتى حضر نورى السعداوى من مهمة كان موفداً بها إلى مصراته، فأبلغه الخبر، ولما كان نورى السعداوى لا يعرف شيئًا عن نشاط أخيه ويجهل ما يدور فى الاجتماعات التى يعقدها بشير وزملاؤه، فقد أفلح فى إقناع المتصرف بأن ما بلغه لم يكن إلا وشايات لا تستند على شىء من الحقيقة. وأما بشير السعداوى نفسه، فقد ظل مقتنعًا بفكرة الخلافة العربية هذه، حتى جد من الحوادث ما اقتلع هذه الفكرة من جذورها من ذهنه، وجعله يتشبث ببقاء الدولة العثمانية، وببقاء الخلافة الإسلامية فى الدولة، كشرطين أساسيين - على نحو ما صار يعتقد وقتئذ - لاستنقاذ وطنه طرابلس الغرب من الخطر الذى بدأ يتهدده ثم لم يلبث أن أخذ يتجسم شبحه فى الأفق رويداً رويداً، ونعنى به الغزو الإيطالى الذى أهدر "الحريات" التى تفتحت لها أذهان بشير السعداوى وصحبه؛ والذى جعل بشير السعداوى يقف من تلك اللحظة على رأس ذلك الطريق الشاق والطويل، ثم لا يزال من ذلك التاريخ البعيد يسير

فيه من غير ما تعب أو سأم أو كلالة، يجاهد فى سبيل الله، ولتحرير الوطن من "الاستعمار" والنفوذ الأجنبى.

بداية الجهاد ضد المستعمر (١٩٠٨ - ١٩١١).

كان المتصرف العثمانى الدكتور رشيد بك، وهو طبيب جركسى، ومن كبار الاتحاديين أول من نبه الأذهان فى الخمس إلى أطماع إيطاليا فى طرابلس الغرب. ولا يزال يذكر بشير السعداوى كيف أن رشيداً - وقد شعد له أهل الخمس وقتئذ علاوة على ذلك بأنه كان إداريًا قديراً - كان رجلا كبير الوكنية، عالى الهمة، لا يدع فرصة تمر دون أن يبذل كل جهده لتبصير أهل البلاد بمقاصد الطليان الحقيقية، وهم الذين بدأوا يعملون لتنفيذ مآربهم بأن حصلوا من الحكومة العثمانية فى عام ١٩٠٥ على امتياز بإنشاء فرع لبنك دى رومة فى طرابلس وبرقة، صارت مهمة هذا الفرع فى الحقيقة نشر الدعاية الإيطالية والتجسس على أحوال البلاد والأهلين فى ليبيا. ولما كان أكثر ما يشغل به بشير السعداوى نفسه بعد تخرجه من المدرسة الرشدية، ثم أثناء قيامه بأعباء الوظائف التى تقلب فيها وإلى وقت إعلان الدستور العثمانى (١٩٠٨)، هو أن يستكمل نوع تلك الثقافة العربية - العثمانية التى اختارها لنفسه، فقد انصرف تفكيره إلى الموضوعات المتصلة بها والتى عالجناها فى موضوعها وكان آخرها مسألة الخلافة العربية. حتى حدث أن تعين رشيد بك متصرفًا للخمس عقب إعلان الدستور؛ وأخذ على عاتقه أن يلفت نظر بشير السعداوى وصحبه إلى الخطر الذى يتهدد بلادهم من ناحية الطليان. وكان لهذا التنبيه - كما ذكرنا - أعظم الأثر فى تحول بشير السعداوى رويداً رويداً عن فكرة الخلافة العربية، والإقبال على التمسك بالدولة العثمانية وخلافتها، والاعتقاد رويداً رويداً كذلك، وبقدر الخطر فى الفترة القصيرة التالية من ناحية إيطاليا، بأن العرب - على الأقل فى بلاده طرابلس الغرب - لن يستطيعوا وحدهم أن يدفعوا عنهم اعتداء الدول الأوربية عليهم، وأن الغرب - لذلك -

قد يعجزون عن الذود وحدهم أيضًا عن حياض الخلافة الإسلامية، إذا انتزعت هذه من آل عثمان أو تخلت الدولة العثمانية عنها، ليقوم بهاه خليفة عربى قرشى على نحو ما كان الكواكبى يدعو إليه.

وتوسم المتصرف فى بشير السعداوى أنه - على شبابه - الوطنى الذى سوف يبذل كل ما وسعه من جهد وحيلة، لإحباط تدابير الطليان - العدو الذى لا زال مستترًا - وقد وقف الآن على مقاصدهم، واتفق الاثنان على عرقة نشاط بنك دى رومه. وكان البنك يعمد إلى إقراض الأهلين قروضًا على آجال متفاوتة، بضمانة أراضيهم، فإذا حان موعد السداد، وعجز هؤلاء عن الدفع - وكثيرًا ما كان يجد خؤلاء المقترضون أنفسهم لسبب أو لآخر، عاجزين عن الدفع أصلا، أو عن إرضاء البنك فى شرائطه التى اشترطها عليهم - بادر البنك بالاستيلاء على الأرض. وكانت الطريقة المتبعة لمن يريد قرضًا من البنك ولا يملك أرضًا، أن يضمنه لدى البنك ضامن يمتلك أرضًا، حتى إذا عجز المدين عن الوفاء بدينه، طولب الضامن أو (الكفيل)، فإذا عجز هذا عن الدفع، استولى البنك على أرضه فكان إذا طلب البنك التوقيع بالحجز على أرض أحد الأفراد، أو عز بشير السعداوى إلى قبيلة الرجل أن يتقدم بعضهم للادعاء بأن الأرض ليست له وحده بل إنهم يشاركونه فيها. ولما لم تكن لدى الأهلين مستندات تمليك رسمية، فقد صار من السهل تقديم هذه الادعاءات ووقف أو عرقلةل عملية انتزاع الأراضى من أصحابها الوطنيين لحساب بنك دى رومه.

ونشط بشير السعداوى وصحبه من جانبهم يكتبون إلى نوابهم فى البرلمان (العثمانى) فى الآستانة ينبونهم إلى الأخطار المحدقة بوطنهم من ناحية إيطاليا، وكان هؤلاء النواب. محمود ناجى الأرناؤوطى عن الخمس، الصادق بن الحاج عن طرابلس، وفرحات الزاوى عن الزاوية، وسليمان البارونى عن الجبل الغربى، وحسين بن جابر عن النواحى الأربعة، وجامى بك (الضابط)

وكان ياوراً للمشير رجب باشا عن فزان. وزادت مخاوف بشير السعداوى وصحبه من نوايا الطليان، عندما أوفدت إيطاليا بعثة "علمية"، إلى طرابلس فى غضون عام ١٩٠١، برئاسة (الكونت سفورزا). للقيام برحلة أثرية وللكشف عن معدن الفوسفات، بينما كانت هذه بعثة عسكرية لوضع المصورات والخرائط الحربية. وقد ظلت تتجول فى البلاد حتى وصلت فى تجولها إلى فزان، وكان أن قبض على أعضاء هذه البعثة وهم بها عقب قيام الحرب (فى يناير ١٩١٢) فجىء بهم إلى الجبل الغربى ومن بينهم الكونت سفورزا، فأقاموا فى يفرن، حتى إذا عقد الصلح بين إيطاليا وتركيا فى (أوشى لوزان)، غادرت البعثة يفرن فى نوفمبر ١٩١٢ للعودة إلى بلادها عن طريق تونس.

وأحدث وجود هذه فى الخمس أثناء تنقيبها المزعوم عن الآثار، ضجة فى أوساط الوطنيين، الذين كان متصرفها الدكتور رشيد بك قد نبههم إلى نوايا إيطاليا، واتفقت كلمة هؤلاء وعلى رأسهم بشير السعداوى وكلمة متصرف الخمس على المبادرة بتنبيه الأمة إلى الخطر الداهم. وسعى بشير السعداوى لمقابلة الكونت سفورزا - وكان تازلا مع أعضاء بعثته فى خيام منصوبة على شاطئ البحر، فاسقبله الرجل فى خيمته التى كانت خلواً من أى أثاث عدا سرير بسيط فقط. ودار بينهما حديث كان المترجم فى أثنائه ضابطًا طرابلسيًا اسمه كمال الأسود، فتكلم بشير السعداوى عن الغرض الحقيقى الذى جاءت البعثة من أجله إلى طرابلس، وأردات أن تخفيه تحت ستار البحث عن الآثار، والذى يعرفه الأهلون جميعًا، وهو رغبة الطليان فى الاستيلاء على البلاد، وأنذره بأن الطرابلسيين شعب عربى ومستحيل أن يفرطوا فى تراث ورثوه عن آبائهم وأجدادهم منذ عشرة قرون ونيف، وفوجئ الكونت باللهجة التى خاطبه بها بشير السعداوى، وأدهشه مقالته، وصار يتلطف فى الجواب عليه.

وكـان فى أثناء وجود الكـونت سفـورزا فى الخمـس، أن عقـد بشيـر السعداوى وصحبه أول مؤتمر عرفتـه البلاد قاطبة للبحث فى قضية طرابلس؛ ذلك أن رشيـد بك بالاتفاق مع بشـير السعـداوى رأى انتهاز الـفرصة لعـقد مؤتمر، يبحث فيه قـادة الرأى فى البلاد المسائل التى صارت تشغل أذهان أهل الوطن، وكلها صارت مـتصلة بموضوع الأطماع الإيطاليـة، والخوف من غزو الطليـان لطرابلس الغرب. وكـان مقـصد المتـصرف الدكـتور رشـيد وبشـير السعداوى من عـقد هذا المؤتمر، الذى كان من المنتظر أن يحدث دويًا كـبيرًا، حيث لم يسبق أن اجـتمع أهل البلاد فى مثل هذا الاجتمـاع، أو لبحث مثل هذه الأغـراض المزمع بحثـهـا، كان مـقـصدهمـا أن تنتـبه الأمـة إلى الخطر الإيطالى، وأن يسـتعـيد الأهلون للجـهاد، فـلا يؤخذون على غـرة إذا نزل الخطب ووقع الغزو فـعلا، وعلى ذلك فـقد قر الرأى على أن يحـضر المؤتمر مندوبون عن كل الأقـضيـة التابعـة للواء الخمس. فـانتخـبت مسـراته نورى السعداوى، وحضـر عن سرت رئيس بلديتها محمـد المحمودى، ومن زليتن، رئيس بلديتها عمر بن قدارة، واختارت الخمس لتمثيلها الشيخ عبد السلام بن يونس، وإبراهيم بن خليفـة. ومحمد الترجـمان، وحضر عن مـسلاته الحاج فرحات القاضى، ومفتاح التريكى، والشيخ السنوسى بن صالح، وعن سيلين (من ضواحى الخـمس) الصادق بن هنيدى، وعن تاورغـة بشير السـعداوى. وانعقـد المؤتمر فى ميـدان سوق الخمـيس، وهو مكان فسيـح، جعل ممكنًا أن يجـتمع غـير هؤلاء المندوبين الذيـن ذكرناهم مـئات من المواطنين، كـان من أبرزهم بطبيـعة الحال، الشيخ عبـد الرحمن الزقلعى الذى اشتـرك مع صديقه السـعداوى ومع متـصرف الخـمس فى تدبير الاجـتمـاع وتنظيمـه. وخطب المندوبون وخـصوصًا السـنوسى بن صالح، الذى ألقى فى ذلك اليـوم خطابًا عظيـمًا. واتخذ الحـاضرون عـدة قرارات منهـا منع كل معـاملة مع بنك دى رومة، وبيع الأراضى لهذا البنك أو الاقتراض منه، ولما كان لهذا البنك سفينة تحضـر للعمل بالسواحل أكـثر من مرة كل شهـر، فقد قـرر المؤتمر مقاطعتـها

ومطالبة الدولة بالتدخل لوقف هذا النشاط، كما طالب الحاضرون بأن يأتى بريد الآستانة على ظهر سفينة عثمانية بدلا من السفينة الإيطالية التى كانت تحضره فى العادة. ثم كان من قراراتهم أن تبادر الدولة باستصدار مرسوم ملكى بتجنيد الطرابلسيين بكل سرعة، واستبقاء الأسلحة بأيدى الأهلين، ثم زيادة تزويدهم بها، حتى تكون لدى البلاد قوة كافية تستطيع الدفاع عنها، ثم إنهم طلبوا من أهل البلاد مقاطعة المدارس الإيطالية، وكان للطليان مدرستان، إحداهما فى طرابلس (المدينة) والأخرى فى الخمس.

وقد أبرق المندوبون بهذه القرارات إلى الصحف الأوربية، ولا يزال يذكر بشير السعداوى من الصحف التى أبرقوا غليها وقتئذ، (التايمز) Times الإنجليزية، و (الطان) Temps الفرنسية، كما لا يزال يذكر أن هذه البرقيات تكلفت أكثر من ثلاثين جنيهًا ذهبيًا وهو مبلغ كبير فى ذلك الوقت. وحمل المندوبون قرارات المؤتمر إلى المتصرف - ولو أن المتصرف الدكتور رشيد، كان يعلم سلفًا بأمرها، بل واشترك مع بشير السعداوى وصحبه فى تحديد نوع القرارات الواجب أن يتخذها المؤتمر.

واستمر المندوبون يعقدون الاجتماعات بعد ذلك، واتخذوا لهم "مكتبًا" فى أول الأمر فى دار البلدية، ثم انتقلوا إلى دار جمعية الاتحاد والترقى، التى ذكرنا أنها تأسست فى الخمس وقتئذ، وأن بشير السعداوى أصبح عضوًا بها بعد أن نبذ فكرة الخلافة العربية ظهريًا.

الغزو الإيطالى (١٩١١ - ١٩١٢):

ولقد سبق الحديث عن هذا المؤتمر فى كتابنا (السنوسية دين ودولة)، ولقد ذكرنا فى هذا الكتاب "أنه كان من أثر هذا النشاط الظاهر من جانب بشير السعداوى وإخوانه الوطنيين فى الخمس، أن صارت إيطاليا تخشى ذيوع حركة المقاومة ضدها، وبادرت بالاعتداء المسلح على طرابلس قبل أن تستكمل البلاد استعدادها . . ". وفى واقع الأمر لم تكن أطماع الطليان مجهولة، بل

إن سفير تركيا فى إيطاليا حسين كاظم بك كان قد أخطر وزارة إبراهيم حقى باشا بالآستانة منذ شهر يناير ١٩١١ بنوايا الطليان الحقيقية وتدابيرهم الخفية من أجل الإغارة على طرابلس الغرب. ولكن إبراهيم حقى الذى اتهم بالتواطؤ مع أعداء الدولة لم يحرك ساكنًا، بينما عمدت الحكومة الإيطالية إلى تضليل المسئولين الأتراك، بما كان يصدره وزراؤها من آن لآخر من تصريحات عن تمسك حكومتهم بسياسة المحافظة على كيان الإمبراطورية العثمانية. وكان آخر ما حصل من هذا القبيل تصريح فى هذا المعنى أدلى به فى مجلس النواب الإيطالى فى ٩ يونيه ١٩١١ وزير خارجية إيطاليا الماركيز (دى سان جليانو) San Giuliano ولكن إيطاليا لم تلبث أن اقتنعت بضرورة التعجيل فى إماطة اللثام عن نواياها عندما جد من الحوادث ما جعلها تخشى إذا هى تباطأت من أن يضيع عليها نهائيًا الاستيلاء على طرابلس الغرب. قد ثار خلاف بين تركيا وفرنسا حول تخطيط الحدود بين طرابلس الغرب وتونس، وتوسطت ألمانيا لتسوية الخلاف بالطرق السلمية، ووافقت تركيا على تشكيل لجنة فرنسية تركية لبحث مسألة الحدود، وطمعت ألمانيا فى أن تنال مكافأة على توسطها واستخدام نشاطها فى مصلحة العثمانيين، (مرسى طبرق) أو أى مرفأ آخر فى طرابلس الغرب يصلح لأن يكون محطة لتزويد السفن الألمانية بالفحم والوقود فى البحر الأبيض المتوسط. فلمست إيطاليا فى ذلك خطرًا يقضى على مصالحها وادعاءاتها فى طرابلس وقررت العمل فوراً وقبل خروج هذه البلاد من دائرة نفوذها نهائيًا. وعلى ذلك فقد فاجأت الحكومة الإيطالية الدولة العثمانية بإنذارها فى ٢٦ سبتمبر ١٩١١، بأنها سوف تحتل طرابلس وبنغازى احتلالا عسكريًا، حيث إن الدولة العثمانية "كانت حتى الآن تبدى عداء دائمًا نحو الحركة الإيطالية فى طرابلس وبنغازى" حتى أصبحت الحالة فى طرابلس الغرب، "عظيمة الخطورة بسبب التحريض العام ضد الرعايا الطليان". ولم يفد جواب الباب العالى على هذا الإنذار ؟ سبتمبر؛ وكان جوابًا يحمل طابع الذل والمسكنة لأن الدولة لم تكن مستعدة لخوض غمار

الحرب مع إيطاليا. فتنصلت الحكومة العثمانية من مسئولية أية أعمال "كانت نتيجة الحكم الماضى"، ونفت أنها تريد تعطيل المصالح الإيطالية، وطلبت فتح باب المفاوضة ولكن دون نتيجة. فقد أعلنت إيطاليا الحرب على الدولة فى مساء اليوم نفسه (٢٩ سبتمبر) وفى ٣ أكتوبر ١٩١١، أطلق الأسطول الإيطالى قذائفه على ميناء طرابلس، وبذلك بدأت الحرب الطرابلسية الإيطالية.

وكان الأسطول الإيطالى قد ظهر أمام مدينة طرابلس منذ ٣٠ سبتمبر وضرب حولها الحصار وأمهل المدينة ثلاثة أيام للتسليم قبل أن يطلق عليها قذائفه فى ٣ أكتوبر. فانتشر خبر هذا العدوان الإيطالى فى طول البلاد وعرضها؛ وكان من المنتظر أن تغدو الخمس مركز نشاط كبير "للجهاد" ضد الطليان المعتدين على الوطن؛ وذلك لأن بشير السعداوى وصحبه كانوا - كما عرفنا - يسبقون مواطنيهم فى معرفة مقاصد الطليان، ويتوقعون من مدة طويلة أن يحدث الغزة، ويطلبون منذ المؤتمر الذى عقدوه فى أواخر ١٩١٠ من الأهلين أن يتسلحوا وأن يستعدوا للطوارئ فلا يأخذهم الطليان على غرة عند عدوانهم عليهم. وكان عند مجيء الطليان قد تغير متصرف الخمس، فحل محل رشيد بك متصرف آخر هو شفيق بك. وعرف المتصرف الجديد فى بشير السعداوى نفس المزايا التى عرفها فيه الدكتور رشيد من قبل، والتى جعلت له مكان الزعامة فى قومه. فاختاره المتصرف شفيق لقائمقامية الساحل: (ساحل آل حامد)، لقرب (الساحل) من الخمس، وكان الغرض من تعيين السعداوى قائممقام أن يأخذ على عاتقه مهمة تنظيم حركة الجهاد فى هذه الجهة. وكان قد بدأ يدعو للجهاد منذ أن ذاع خبر العدوان الإيطالى على مدينة طرابلس، يعاونه فى ذلك الشيخ عمر النعاس، والشيخ عبد الرحمن الزقلعى. ثم تعين بشير السعداوى رئيسًا للمجاهدين فى هذه المنطقة التى صارت الجناح الأيمن لمدينة الخمس فى دور العمليات العسكرية المنتظرة عند بدئها. بينما يتألف القلب من مدينة الخمس ذاتها، بقيادة شفيق بك الذى لم

يلبث أن خلفه فى القيادة القائمـمقام أركان حرب (خليل بك)، وهو عم أنور (باشـا) القائد العـثمـانى المشهـور وأحـد أقطاب الانقلاب العـثمـانى، ومن أصحاب النفـوذ فى جمعيـة الاتحاد والترقى، وقد نشأ بين خلـيل بك وبشير السعداوى صداقة سرعان مـا توثقت أواصرها، وصار لهذه الصداقة شأن فى اختيار الطريق الذى شقه بشير السـعداوى لنفسه بعد هذه الحوادث وأما الجناح الأيسر فكان رئيس المجاهدين فيه ضابط من مسراته يدعى على بحرى.

واتخذ بشيـر السعداوى (ساحل آل حامد) مـركزاً له يرسل منه الدعوة إلى القبـائل ويحثهم على الجـهاد؛ وذهب نورى السعداوى، وبصـحبته عـبد الرحمن الزقلعى إلى مـسلاته لإيصال الدعـوة إلى داخل البلاد. واحتـشدت أعداد عظيمة عند الساحل. وأنذر الطليان بشيراً بإطلاق القذائف على الخمس إذا امتنعت حكومتـها عن التسليم. وكان بشيـر السعداوى وصحبـه قد أبرقوا باسم أهل الخـمس جميـعًا إلى الدولـة، يحتـجون عـلى عدوان الطليـان، ويؤكدون استمـساكهم بدولة الخلافة "والسلطة العثمـانية" ويبلغون "حكومة الآستانة أنهم قـد أقاموا اجتمـاعات كثيرة، وقـرروا أن يسفكوا آخر قطرة من دمائهم فداء للوطن، فلـينعم الباب العالى والأمة العثـمانية وصحافـتها بالا، وليهدأ روعها، فإن وطنهم لا يباع إلا بالدم". ثم استمروا يقولون: "وليعلم جميع العـثمانيين أننا نسـتقبل الموت باسمى الثغـور مهللين. فحيـاتنا نبذلها رخيصة غـير آسفين فى سبيل شرف الدولة ولا نـقبل أن يكون شبر أرض من بلادنا مهـدداً من الأجانب، فشـيوخنا وشبـابنا متفقـون على استقـبال الموت بقلوب لا تهاب المنايا، فذلك خيـر من استبداد الأجنبى بهم". وطلب الذين أبرقوا إلى الدولة أن ترسل (إليهم) المؤن والذخـائر والعدد الحربية على جناح السرعة ليذودوا عنها وليرفعوا رءوسـهم بوطنيتهم. واستمروا يقولون: "وإننا نرجو من حكومتنا أن لا تجيب الإيطاليـين إلى مطلب، ولا تعطيهم امتياز فى بلادنا، ولو امتياز إقتـصاديًا على الإطلاق. وإنا ننصح للحكومة أن لا تحملنا على عـدم مقـاطعة الإيطاليـين الذين صاروا فى نظرنا أعـداء الدولة. فـهذه

الحرب الاقتصادية تعود عليهم بخسارة فادحة لنعلمهم كيف يكون الاعتداء". وقد اختتموا برقيتهم هذه بقولهم: "هذا ما نعرضه وجموعنا واقفة فى مكتب التلغراف وفى خارجه، نطلب إمدادنا لنقوم بالواجب علينا".

ولكن الطليان لم يلبث أن ضرب أسطولهم (الخمس) فى ٢٠ أكتوبر ١٩١١ وحاولوا النزول إلى البر، ولكنهم عادوا أدراجهم، وظلت المقاومة أربعة أيام كاملة ثم استطاع الطليان النزول إلى البر، ومع ذلك فقد ثابر المجاهدون على القتال مع ضآلة عددهم. وتحصن خليل بك والمجاهدون فى مرتفع يطل على مدينة الخمس يسمى (المرقب). وحاول خليل بك أن يستنفر أولاد سليمان فى منطقة سرت إلى الجهاد، وقد ظل سيف النصر رئيس قبيلة أولاد سليمان بعيدًا عن الجهاد، لنقمته على الدولة العثمانية التى قتلت أباه عبد الجليل وعمه سيف النصر فى ثورة ١٨٤١ - ١٨٤٢، فبعث إليه بوفد يتألف من نورى السعداوى من صمراته وفرحات القاضى وفرج بن إبراهيم من مسلاته، ومحمد بن عامر من سرت، ومعهم على فائق إمسيك للغريانى من ضباط الجيش، ولكن دون جدوى، ودفع المتحصنون فى (المرقب) هجومًا قام به الطليان فى أواخر يناير ١٩١٢ للاستيلاء على هذا المكان الحصين، ولكن المجاهدين لم يستطيعوا الصمود طويلا فى (المرقب)، فاحتله الطليان فى ٢٨ فبراير ١٩١٢، ومع ذلك فقد حاول المجاهدون استرداد (المرقب) مرات عدة، وكان أعنفها وآخرها الهجوم الذى وقع على (المرقب) فى ١٢ يونيه، حيث تمكن المجاهدون من اقتحام تحصينات الطليان، ولكن مدفعية العدو لم تلبث أن سلطت على المجاهدين نيرانها الشديدة من نفس الموقع. ومن مدينة الخمس ومن الأطول، فارتد المجاهدون عن المرقب بعد أن كبدوا العدو خسائر فادحة، وبعد أن تحملوا هم كذلك خسارة كبيرة.

وفى رسالة من بشير السعداوى إلى أخيه نورى من (فلاجة) فى ٢٦ يونيه ١٩١٢، يصف البشير إحدى هذه المعارك التى اشتبك فيها المجاهدون

مع الطليان، وفيما يلى نص هذه الرسالة الهـامة، دون تغيير؛ ووضعنا بعض الملاحظات الضرورية بين قوسين:

عن فلاجـة فى ٢٦ يونيه ١٩١٢ (والأصل ٢٦ حـيزران ١٣٢٨ والسنة هى السنة المالية).

أخى المحترم نورى أفندى السعداوى دام مجده.

بعد السـلام. إنه فى يوم الاثنين الموافق (٢٥ يونيـه سنة ١٩١٢) خرج العدو تقريبًا بفرقة بيادة وثلاث بطريات مدافع والأى سوارى الذى هو ثمانمائة خيال صبـاحًا واشغلت نيران الحرب. ففى السنة الثالثـة أكثر القوة من الجناح الأيسر. والوضعية كانت مساعدة للعدو إلى الغاية من جهة الرمال. فاضطرت المجاهـدين لترك تلك الجـهة، ورجـعت إلى بيت محـمد الجـمل الذى على الطريق المخدومة، وأخذنا محل مدافعة فى تلك الجهة إلى البحر. والمجاهدون الذين فى الجهة، يعنى فى جهة الزروق قاوموا جد المقاومة حتى صارت بنادق العدو تطلق عليهم من الأمام ومن الشمال إلى الساعة الخامسة، فلما لا حظوا قطع خط الرجعة، واشتد عليهم طلق المدافع صـاروا مجبورين أيضًا للرجعة. ولكن رجعتهم أخذت فى الاستقـامة، يعنى ما لتحقوا بنا فى الجناح الأيسر. ولما لم يكن لهم ظهر تركـوا خط الحرب والعدو رغمًا على ذلك لم يعـقبهم فظنوا أنه اكتفـى بما ضبطه فى المحل. والحال أنه لما توفقـوا لإرجاع قوتنا أتوا إلينا، يعنى للجناح الأيسر، فصرنا نقاوم فى قـرة قولين إلى الساعة السادسة، وبعده كـثر العدو، وقلت الفـوشيك (الخرطوش) اضطررنـا للرجوع، فكانت رجعتنا غيـر موافقة: وهى إلى مواطين (مكان فى البادية يبـعد حوالى أربعين أو خمـسين كـيلو متـرًا عن مدخل مصـراته). وأما الجناح الأيمن مـا أمكنه المقاومة لأنه فى محل مفتـوح ومعرضين لمدافع العدو. ولما أن أتينا لمواطنين و (؟) صـرنا نجمع فى الـناس لأجل المدافعـة. النهـاية على مـواطين اشتـغل المجاهدون ينقل عـائلاتهم. ففى هذه الأثناء تحـسس العدو أنه ليس فيـه قوة

ماقبلة فتقدم إلى مواطين، فلما أحسسنا به تقدم، قمنا لنجمع المجاهدين (الذين) بيدنا فوجدناهم تحت المائة والخمسين؛ يعنى لا يكونون كافين للمدافعة مع كونهم ليس لهم طاقة على الفر والكر، فهممنا الحوقلة بترك القضية، فيالله للأسف بعد أن أطلقنا النار فى محل الحكومة. فوقفت أنا بقرب قصر الحكومة أمام الكشلة (أى الثكنة) حتى أتانى سوارى العدو من الجهة القبلية قدر أربعمائة ومن خلفه القوة المشاية (المشاة)، وكان بينى وبينهم أربعمائة متر، فلما نظرت الرصاص يضرب فى الحائط بجنبى انسحبت إلى وراء الكشلة قصدى أنظر ماذا يفعلون، فأتوا هاجين أصلا على محل الحكومة، ثم نفرق منهم فرع إلى الشكلة، فلما نظرتهم قادمين للكشلة اضطررت للرجوع، ونظرونى هم وأطلقوا (على) عدة بنادق، فانسحبت إلى المدينة، فوجدت أحمد (السعداوى وهو يكبر بشيراً ولكنه يصغر نورى السعداوى)، وذهبت معه إلى محل العرضى الذى قصدنا أصلا (أن نجعله) محل عرضى (معسكر)، وهو السوالم. ثم يوم (تاريخه) رأينا لزومًا لخروجنا إلى فلاجة لأن جملة العائلات لذلك المحل، وها نحن الآن تجمع فى المجاهدين هنا وقصدنا نرجع إلى حاشية البلاد.

كل الناس والتجار خرجوا ما عدا مصطفى بن حميده، ويقال الآن الحاج عمر بعيو والبقية كلهم خرجوا. يعنى الناس المعروفين.

أعرض لكم كيفية اشتراكنا فى الحرب أنا وأخى أحمد.

ودخلنا إلى خط الحرب من الجناح الأيسر، فبمجرد اشتراكنا فى الحرب شرع المجاهدون فى الرجوع، فصرنا نقرع ونشيح فيهم (نستجثهم وننادى عليهم). ولكن الجهة التى قدمنا إليها أصلا لم يبق فى استحكاماتها سوى القليل، ثم رجعت فرقة ثانية، وأيضًا كلما ندهنا فيهم (أى نادينا عليهم) لم يجد نفعًا. فقال لى أحمد: ارجع إلى الوراء. فقلت له كيف ترجع أمام أبناء وطنى مصراطة، فقال لى ما بقى منهم أحد، وأظنك تريدهم يمسكوننا

مسكًا؛ فلما نظرت وإذا العـدو قد أحاط بنا، قصرنا مجبـورين لتبديل الموقع فذهبنا إلى محل ثان، فمـبجرد ما تقرب العدو إلينا ترك المجـاهدون مواقعهم ورجعت أيضًـا. وكانت رجعـتنا بهذه الصـورة إلى بيت محمـد الجمل. وأنا وأحمد فى سوارى (قـمصان) وسراويل وجردونا (الأحرمـة) وبلغتنا (النعال) فى زاوية الزورق مع الخيول ونحن فى حالة غـريبة - حفاة عراة - على المثل المشهور. ثم أخذت أنا وإياه نفزع الناس (نستحثهم) حتى أمسكناهم فى ذلك المحل (أى جعـلناهم يقفـون به). ثم وإذا بحسن قـرقد على الغلو (مـهر)، وأحمـد ظافر على الحـصان الذى كنت راكـبه، فـقالا إننا وجـدناهم بأيدى عسكر. فركبنا وأخذت أنا وأحـمد داره (وهو من زليتن، وقد هرب بعد ذلك وترك المعركـة) والطاهر أفندى الضـابط (وهو طاهر الطوبجى، ولا يزال على قيد الحياة ويعيش الآن فى استانبول) قدرمائة وخمسين نفراً. وتقدمنا بهم إلى الرمل لأجل المدافعة؛ فلما قابلنا كثرة العدو رجع المجاهدون بصورة سريعة - لم أقل قرار - أخـشى من العار. فصرنا نتـأسف واضطررنا للرجوع. ولكن أحمد داره، لو تنظره حـالة رجوعه كيف أطلق عنان الحصـان والفوشيك يزن على رأسه وهو راقد على الكتب (السرج) والحصان يقفز فى ثلاث طوابى مرة واحدة لما ملكتم أنفـسكم من الضحك مع الأسف أيضًـا. هذا ما أمكننى أن أكتبه لكم الآن لـضيق الوقت واكثرة المشاق. غدا مرادنا الـرجوع للبلاد. قدم بطرفنا مائتا مجاهد، وغداً قـادم - نعم - نسيت أكتب جرودنا وبلغنا ضاعت وأتينا إلى حـاشيـة مواطنين راكـبين حـجاجـيل (أى بدون أحرمـة) والجرود (الأحرمة) ما وجدناهم قط. وهذه حوادث المحاربة والسلام".

ثم قرر الطليان الاستيلاء على مـسراته. فضرب أسطولهم المدينة بمدافعه فى ٩ يوليه، واضطر المجاهدون فى هذه المنطقة إلى التقـهقر، فاحتل الطليان (قصر حمـد). ووفد المجاهدون من سائر الجهات على مسـراته للدفاع عنها، فعين المتصـرف خليل بك قائمقام لمسراته بشيـر السعداوى الذى بادر بالذهاب إليها ليشرف على تنظيم حركة الجهاد بها، ثم اختار بشير السعداوى بعد إنهاء

منظماته قائمـقام لمسراته رجلا من أهلها هو محمـد بك الأدغم بينما قفل هو راجعًا إلى مركز القيادة الذى اتخذه خليل بك قريبًا من الخمس، حيث بقى به بشـير السـعداوى مع خليل بك إلـى نهاية الحـرب. ومن هذا المركز اسـتطاع المجاهدون فى هذه المنطقة أن يحصروا الطليان فى الموقعين اللذين احتلوهما: مدينة الخمس، ثم مدينة مسراته وهى التى بقوا محصورين فيها من قصر حمد إلى (المواطنين)؛ ولم يتوقف القتال. وحرص بشـير السعداوى على أن يتصل فى أثناء ذلك كله بالمجاهدين دائمًا فى مختلف القطاعات.

وبينما الحرب مستمرة، والطليـان محصورون فى الساحل - لأنهم كانوا محـصورين (بطرابـلس) أيضًا، و (زواره)، إلى جـانب الخمس ومـسراته - فوجئ المجاهدون بناحية الخمس، بخـبر إبرام الصلح بين تركيا وإيطاليا، وهو الخبر الذى أذاعه الطليان من مدينة طرابلس فى ٢١ أكتوبر ١٩١٢ ثم لم يلبث أن حضر بـه إلى مركز المجاهدين بناحـية الخمس، رسول إيطالى، مـوفد من مركز المتصـرفية: (الخمس) التى يحتلها الطليان، يحـمل مظروفًا به "فرمان" من السلطان محـمد رشاد مـوجه إلى "سكان طرابلس وبرقة"، و "مـرسوم ملكى" من ملك إيطاليا إلـى "سكان طرابلس وبرقة" كذلك. ففى الفـرمان المذكور يبلغ السلطان أهل الـبلاد، أن حكومته قـد صارت فى حالة يستـحيل معـها عليها أن تسلبـهم المساعدات التى يحـتاجون إليهـا للدفاع عن وطنهم، وإنهـا رغـبة منهـا فى اتقـاء مـواصلة حـرب مدمـرة لهم، وتتـهـدد بالخطر الإمبراطورية العثمانية ذاتها، قد منحـتهم استقلالا داخليًا مطلقًا وتامًا (وذلك بما للسلطان) من حقوق السيادة عليـهم". وأما المرسوم الملكى فقد بدأ بإعلان أن طرابلس الغرب وبرقة قـد صارتا "خاضعتـين خضوعًا تامًا مطلقًـا" عملا بالقانون رقم ٣٨ الصـادر يوم ٢٥ فبراير ١٩١٢ "للسيادة الملكـية الإيطالية". وذلك إلى جانب منح العفو التام للطرابلسيـين والبرقاويين الذين اشتركوا فى الحرب. والوعد بكفـالة الحرية الدينية، واحتـرام حقوق "الأوقاف" والتـقاليد والشعائر الدينية الإسلامية . .

وكان صدور هذين المنشورين - الفرمان، والأمر الملكى - بناء على ما قررته معاهدة الصلح التى أبرمت بين الأتراك والطليان فى (أوشى لوزان) فى ١٥ - ١٨ أكتوبر ١٩١٢.

وقد تلقى الرسول الإيطالى، حامل هذين المنشورين فى مركز المجاهدين، خليل بك، ونورى السعداوى، وكان بشير السعداوى متغيبًا وقتئذ مع المحاربين فى الساحل. وكان خبر الصلح هذا مفاجأة لكل المجاهدين، وقر الرأى على ذهاب جماعة منهم إلى (العزيزية) التى كان بها نشأت بك القائد العثمانى، فى الميدان الطرابلسى - ولا يجب أن يغرب عن ذهننا أن الحرب كانت دائرة كذلك فى الميدان البرقاوى بين المجاهدين هناك بقيادة أنور بك (باشا) والسيد أحمد الشريف السنوسى، على نحو ما يجده القارئ مفصلا فى كتابنا عن (السنوسية دين دولة) - وكان الغرض من الذهاب إلى العزيزية، تبادل الرأى مع سائر زعماء البلاد فيما يجب عليهم اتخاذه إزاء الموقف الجديد والتشاور فى الأمر. ووقع الاختيار للذهاب إلى العزيزية، على الحاج مفتاح التريكى (من مسلاته)، وحامد القاضى (من مسلاته) ومحمد الترجمان وأحمد بن سنان (وكلاهما من الخمس). ونورى السعداوى. وكان نورى السعداوى مكلفًا من قبل خليل بك بمقابلة رئيس أركان حرب الجيش التركى فى العزيزية، فتحى بك، ليتأكد منه عن صحة خبر عقد الصلح مع إيطاليا بالصورة التى نقلها إليهم فرمان السلطان "مرسوم" ملك إيطاليا. وذهب الجماعة إلى العزيزية. وكان ممن قصدوا إليها كذلك، محمود عزيز قائمقام زليتن، الذى اصطحب معه عددًا من أهل زليتن. ووجد نورى السعداوى فى العزيزية أعيان البلاد. فرحات بك الزاوى، وعلى بن تنتوش قائمقام العزيزية، وأحمد المريض، والصغير المريض، والهادى كعبار، ومختار كعبار، وعبد الرازق البشتى، مفتى الزاوية، وغيرهم. وحضر هذا الاجتماع كذلك نشأت بك وفتحى بك. وبعث المجتمعون يطلبون من سليمان البارونى الحضور من الجبل الغربى للاشتراك فى مداولاتهم. وتأكد لدى نورى

السعداوى من فتحى بك أن خبر الصلح مع الطليان صحيح لأن الدولة العثمانية - كما قال فتحى بك - بسبب حرب البلقان التى توقع الأتراك اندلاعها، والتى قامت فعلا يوم ١٥ أكتوبر، وهو اليوم الذى أعلنت فيه الحرب على الدولة كل من الجبل الأسود والصرب وبلغاريا واليونان. وقرر رأى المجتمعين بالعزيزية على إنقاذ رسول من قبلهم إلى مدينة طرابلس لمقابلة الحاكم الإيطالى، ومعه كتاب منهم يبدون فيه استعدادهم للتشاور مع الطليان فى مصير البلاد؛ وتحدد موعد للمفاوضة فى (سودانى بنيادم) وحضر إلى المكان المفاوضون الطليان، ولكنهم رفضوا الدخول فى أية مباحثات مع الوطنيين، على اعتبار أن مهمتهم لا تعدو أن يطمئنوهم على حرياتهم وأعراضهم وعاداتهم . . الخ، وأن يقولوا لهم إنهم إنما جاءوا إلى هذه البلاد لإصلاحها وتعميرها. وإنهم ليسوا مفوضين فى التباحث معهم فى شىء، بل إذا كان لديهم ما يريدون بحثه فالذى يتولى ذلك معهم الحاكم العام بنفسه أو ربما الحكومة المركزية فى رومة. وانتهز نورى السعداوى الفرصة ليستوضح هؤلاء "المفاوضين" الطليان سبب التناقض بين الفرمان السلطانى الذى يعطى البلاد استقلالها، وبين الأمر الملكى الإيطالى الذى يضم ليبيا إلى إيطاليا، فكان جوابهم أن السلطان العثمانى ما كان يستطيع بوصفه خليفة المسلمين أن يطلب من أهل البلاد التسليم لإيطاليا، حتى لا يستثير العالم الإسلامى ضده. وطلب المفاوضون الطليان أن يختار المجاهدون وفداً منهم للذهاب إلى مدينة طرابلس، مركز الولاية، لبحث موضوع مصير البلاد (!) مع الوالى (أى الحاكم) الإيطالى. ووقع الاختيار على فرحات الزاوى والهادى كعبار والصغير المريض وعبد الرزاق البشتى ونورى السعداوى للقيام بهذه المهمة. وامتنع نورى السعداوى عن الذهاب إلى طرابلس.

وكان جماعة من الذين حضروا اجتماع العزيزية للتشاور، يريدون مواصلة القتال ضد الطليان ويرفضون الاعتراف بالصلح، وقد تزعم هؤلاء سليمان الباروني، ونالوا تشجيع القائد العثمانى نشأت بك، الذى سلم

البارونى المال الذى لديه، وخوله الحق فى تسلم الأرزاق (حوالى عشرين أو خمسين ألفًا من أكياس الدقيق) الواردة باسم المجاهدين، والموجودة فى (بنقردان) فى تونس وراء الحدود الطرابلسية، وقد قصد نشأت بك بعد ذلك إلى الزاوية، ثم منها إلى مدينة طرابلس (نوفمبر ١٩١٢)، ليغادرها قاصدًا إلى استانبول، وأما البارونى فقد أخذ يتأهب للمقاومة، وأبلغ نورى السعداوى أنه لما كان قد اتفق مع قومندان الخمس، خليل بك على استمرار القتال، فقد وجب على جماعة "الشرق" وهم: نورى السعداوى وزملاؤه الذين حضروا اجتماع العزيزية - أن ينفروا معه للقتال وكان من الممكن أن يستجيب هؤلاء لرغبته، وأن يرفضوا "الصلح" الذى أبرمته الدولة لو أن الإمدادات مع الأرزاق والمال ظلت تأتيهم، وهى التى امتنعت عنهم بتاتًا منذ أن عقدت الدولة الصلح مع الطليان، فأجاب نورى السعداوى، البارونى، بأن المجاهدين الذين تركوا الحرث والزرع، وانصرفوا إلى القتال، كانت قدرتهم على الصمود "للقتال" متوقفة - لهذا السبب نفسه - على ما ترسله إليهم الدولة العثمانية من إمدادات الأرزاق والمال، فلما أصر البارونى على ضرورة أن يستأنف أهل السواحل: (مصراته، زليطن، الخمس، الساحل، جفارة) القتال، طلب نورى السعداوى منه - (البارونى) - أن يعطى هؤلاء نصيبهم من الأرزاق التى تسلمها، فلم يقبل، قائلا: إنه لا يفعل شيئًا من ذلك إلا إذا استأنفوا القتال، وثبتوا فيه، وعندما طلب نورى السعداوى أن تنتقل أسر المجاهدين من السواحل إلى الداخل حتى تكون بعيدة عن ميدان الحرب، وتلك عملية تقتضى جمع عدد وافر من الإبل، لم يشأ البارونى إمدادهم بالإبل اللازمة مكتفيًا بإبلاغ نورى السعداوى أنه قد اتفق مع عبد النبى بلخير (ابن خير) قائمقام أرفله أن يبعث هذا إليهم بما يحتاجونه من الإبل، وذلك ما كان يعجز عبد النبى بلخير عن القيام به لأسباب عدة؛ ثم أردف البارونى قائلا: إن قائمقام زليطن، محمود عزيز، قد اتفق معه - على كل حال - على استمرار القتال. وفى وسعه - لذلك - الاستغناء عن اشتراك الخمس

ومصراته وسائر المنطقة الساحلية. وأوضح نور السعداوى للبارونى خطأ هذه الفكرة، لأسباب استراتيجية بحتة، أهمها ان زليطن تقع بين الخمس ومصراته على الساحل، ولا يستطيع وحده الاستمرار فى القتال طويلا، إذا عجزت بقية المواقع الساحلية عن المقاومة، ولن يتمكن من الاتصال بالبارونى فى مكان قيادته البعيد فى الجبل الغربى فى (يفرن). ولكن هذه الحجج لم تفلح فى إقناع البارونى، وانتهت المقابلة بينه وبين نورى السعداوى على غير نتيجة، وانتقل البارونى فعلا إلى يفرن وأما نورى السعداوى فقد قفل راجعًا إلى الخمس، وهو مزمع على الهجرة ومغادرة البلاد مع الجيش العثمانى. وقد بلغ بنورى السعداوى وهو بالخمس أن أعضاء "الوفد" الذين ذهبوا لمقابلة (الوالى) - أى الحاكم - الإيطالى قد عينهم الوالى "مستشارين" له بمرتب قدره خمسون ليرة فرنسية ذهبًا، ولم تفلح محاولة (مأمور السياسة) الإيطالى فى الخمس، فى إقناع نورى السعداوى أو أحدًا من أهله بأن يحذو حذو هؤلاء "المستشارين"، وحملت أول باخرة - وكانت إيطالية - غادرت ميناء طرابلس، نورى السعداوى وبشير السعداوى بين من حملت من المهاجرين الآخرين، وقد ركبا البحر من ميناء الخمس (فى نوفمبر ١٩١٢).

الهجرة الأولى: فى خدمة الدولة: ١٩١٢ - ١٩١٨

١ - الوصول إلى استانبول

غادر إذًا بشير السعداوى البلاد مهاجرًا، ومعه نورى السعداوى، وأسر كثيرة من طرابلس الغرب، وكان أول ميناء مزل به المهاجرون، ميناء حيفا، وذلك بعد سفر طويل، وكان قومندان الخمس، خليل بك، قد ركب معهم نفس الباخرة، ونزل هو الآخر فى حيفا. وذهب توًا بشير السعداوى لمقابلة قائمقام حيفا لتدبير أمر المهاجرين وأسرهم، وصحبه فى هذه المقابلة، مختار بك الفقى أبو بكر بن فتح الله، وأصله من مسلاته وكان من موظفى المتصرفية فى الخمس، وأعد قائمقام حيفا للمهاجرين قطارًا خاصًا حملهم إلى

دمشق، وكان قد سبق إليها خليل بك ونورى السعداوى، بينما بقى فقى حيفا بشير السعداوى حتى يفرغ من ترحيل المهاجرين منها. وكان الوالى العثمانى فى دمشق ناظم باشا، ممن اشتهروا بالإدارة الطيبة فى الشام، ويحفظ لهم أهل البلاد حسن صنيعه معهم. فأبدى عطفًا كبيراً على قضية المهاجرين، وتعهد بقيام الحكومة على تدبير شئونهم. ولم يطل مكث بشير السعداوى وخليل بك فى دمشق. فبادرا بمغادرتها إلى حلب فى طريقهما إلى استانبول. وكان نورى السعداوى قد نصح أخاه بالإسراع فى مغادرة دمشق مع صاحبه، لأن خليل بك كان قد شرع يوزع على كل من يصادفه من المهاجرين شيئًا من المال القليل الذى معهم لينفقوه على رحلتهم إلى استانبول، المكان الذى يقصدون الذهاب إليه، وخشى نورى السعداوى أن ينفذ ما معهم فيعجزوا عن مواصلة السفر. وكان خليل بك رجلا معروفًا بالكرم والسخاء، ويعطف عطفًا عظيمًا على المهاجرين الذين هم من المجاهدين الذين حاربوا الطليان فى أوطانهم. وكان خليل بك منذ أن وقعت الحرب فى طرابلس الغرب قد تخلى عن أربعين جنيهًا ذهبًا من مرتبه الشهرى، وهو خمسون جنيهًا، للإنفاق منها على أسر ضحايا الشهداء الطرابلسيين، وظل يفعل ذلك حتى خرج من البلاد. ويذكر بشير السعداوى أن (خليل) عند وصولهما إلى حلب، لم يلبث أن أهدى (فرنسا) من الجوخ الأسود كان بشير السعداوى قد أعاره له ليحتمى به من برودة الجو، أهداه إلى نافع باشا الجابرى كبير أسرة الجابرى المعروفة فى حلب، والذى كان قد دعاهما إلى مأدبة عشاء فأراد خليل بك أن يكون هو الآخر جوادًا سخيًا. واستأنف الرفيقان رحلتهما من حلب إلى طرابلس الشام، ثم ركبا من طرابلس البحر إلى مرفأ (مرسين) على شاطئ الأناضول الجنوبى. ومن (مرسين) قصدا إلى (قونية) فلما بلغاها كان قد نفد كل ما لديهما من مال. وأراد خليل أن يبيع ما كان معه ومع صاحبه من ملابس، أعتقد أنها "زائدة عن الحاجة"، كما أراد أن يبيع ما كان معهما من مسدسات. ولكن بينما كان لا يزال الصاحبان يتباحثان فى الأمر وهما

جالسان فى أحـد مقاهى المدينة، إذ مر بهمـا صديق قديم لخليل بك، يدعى إبراهيم حقـيق بك ويشغل منصب رئيس الشـرطة فى (قونيـة). فيهـرع إليه خليل، وأوقفه وأخـذ منه قدراً من المال، استطاع بفضله هو وزمـيله استئناف السفر من (قونية) إلى استانبول.

ووصل بشير السعداوى وزميله استانبول فى الأيام الأولى من شهر يناير ١٩١٣. ونزل السعداوى ضيفًا على صـاحبه خليل. ولم تمض أيام معدودات على وصـوله إلى دار الخلافـة، حتى شـهـد الانقلاب الذى أطاح بحكومـة الائتلافـيين، وأنشأ (ديـكتاتوريته) الاتحـاديين التى واصلت الحرب البلقـانية، وظلت بيدها السلطة بعد ذلك، ومن بداية دخول تركـيا الحرب العالمية الأولى فى نوفمبر سنة ١٩١٤ إلى وقت أن عـقدت الهدنة فى رودس فى ٣١ أكتوبر ١٩١٨.

والحقيقة أن السعداوى وخليل بـك، وصلا الآستانة فى وقت كانت فيه الهزائم قد تلاحقت على الدولة منذ قيـام الحرب الطرابلسية الإيطالية فى عام ١٩١١، وذلك إلى جانـب الثورات المتعـددة والاضطرابات التى انتـشرت فى أنحاء الدولة بعـد حادث خلع السلطان عبد الحمـيد فى إبريل ١٩٠٩، وذلك فى ألبانيا وكردستان، وجبل الدروز فى الشام، واليمن، ومقدونيا، وغير هذه الجهات. ولو أن هذه الصـعوبات ذاتها والتى استـمرت طوال عامى ١٩٠٩، ١٩١٠ قد أعطت (جـمعة الاتحـاد والترقى) كل سيطرة على شـئون الدولة. وزادت المحنة بسبب الحرب الإيطالية الطرابلسية التى بدأت - كما عرفنا - فى سبتمبر ١٩١١، ولم تلبث أن انتهت بضياع طرابلس الغرب. ففقد الاتحاديون بسبب هذه الكـوارث نفوذهم، ولم يفوزوا فى الانتـخابات للبـرلمان الجديد. وفى ٩ يوليو ١٩١٢ انسحب الاتحاديون وتشكلت وزارة جديدة من كبار رجال الدولة العثمانيـة القدامى "لإصلاح ما أفسدته تركيا الفـتاة" وقد سميت هذه الحكومة الجديدة (بالوزارة العظمى)، ولكـن الوزارة العظمى لم تعمر طويلا،

وكانت برئاسة الصدر الأعظم مصطفى كامل باشا. ورجالها من الائتلافيين وهم "أحرار" الأتراك الذين أسسوا جمعية "الحرية والائتلاف" التى كانت غايتها منح الولايات العثمانية استقلالا إداريًا، وإدارة شئون الدولة على أساس اللامركزية. وأراد الائتلافيون إبعاد نفوذ "الضباط" أو العسكريين الاتحاديين عن كل شئون الحكم والإدارة؛ وحاولوا بعد الهزائم السابقة أن يجنبوا الدولة الدخول فى حرب جديدة. ولكنهم عجزوا عن فعل ذلك بسبب ضغط الاتحاديين عليهم، ولأن دول البلقان أعلنت الحرب على تركيا فى منصف أكتوبر ١٩١٢ وبدأ القتال فعلا فى نفس اليوم الذى وقعت فيه الدولة مع إيطاليا معاهدة أوشى - لوزان فى ١٥ أكتوبر ١٩١٢.

ثم سارت الحرب فى البلقان فى غير صالح الدولة، فتوغل اليونان فى مقدونيا، وبعد ثلاثة أسابيع استولوا على (سالونيك) فى ٨ نوفمبر، وانتصر فى الميدان الغربى الصرب فى (كومانوفو) فى ٢٣ أكتوبر، واستولوا على (اسكوب)، ثم فى ١٨ نوفمبر على "موناستير"؛ وزحف عسكر الجبل الأسود تعزيزهم قوات صربية على سنجق (نوفى بازار)، ثم على ألبانيا، وفى نوفمبر سقطت "دورازو" فى أيديهم. وانتصر البلغار بدورهم على الأتراك فى ٢٤ أكتوبر فى "قرق كلية"؛ ثم فى "لولو برغاس" فى ٢٩ منه، وقد حطم البلغار فى هذه المعركة قوة الأتراك العسكرية. فلم ينتصف شهر نوفمبر حتى كانوا قد وصلوا إلى خطوط الأتراك فى (جتالجه) الممتدة من بحر مرمرة إلى البحر الأسود والتى كانت تقع وراءها بمسافة خمسة وعشرين ميلا فحسب، استانبول ذاتها.

ولكن الأتراك سرعان ما عملوا على تقوية خط (جتالجه) الذى عجز البلغار عن اختراقه بينما انتشر وباء الكوليرا فى صفوف المحاربين من الجهتين؛ كما أن الدول لم تكن تنظر بعين الارتياح، لاحتمال أن يتمكن البلغار من دخول القطسنطينية (استانبول)، وهددت النمسا التى رفضت أن

يوطد الصربيون أقدامهم على ساحل بحر الأدرياتيك بالتدخل المسلح فى الصرب؛ ونجم عن هذه المشكلات أن توقف القتال، ورضى الصدر الأعظم كامل باشا بعقد الهدنة لإنقاذ دار الخلافة فى ٣ ديسمبر ١٩١٢ مع البلغار والصرب والجبل الأسود، على أن تستمر مدة المفاوضات التى يجب أن تبدأ عشرة أيام فى لندن لعقد الصلح النهائى. وقد بدأت المفاوضات للصلح فى لندن فعلا فى ١٣ ديسمبر؛ ولكن دون الوصول إلى نتيجة، لأن الدول البلقانية أصرت على أن يسلم الأتراك لهم أدرنة و "يانينا" و "سكوتارى" فقطعت المفاوضات فى ٦ يناير ١٩١٣.

ذلك كان الموقف عندما وصل بشير السعداوى إلى استانبول، العدو فى مواجهة خط "جتالجه" ويهدد عاصمة الدولة، والرأى العام فى صورة كبيرة. فالائتلافيون وعلى رأسهم الصدر الأعظم كامل باشا هم الذين يؤلفون الحكومة، بينما الاتحاديون كانوا مبعدين، ولا يسلمهم الائتلافيون شيئًا من شئون الحكم والإدارة، ولكنهم بسبب الانهزامات التى توالت على الدولة من جهة، وما ظهر من جنوح "الوزارة العظمى" إلى السلم، لو أنها استطاعت إلى ذلك سبيلا من جهة أخرى، وخوف سواد الأمة أن تفرط الحكومة ثمنًا للصلح الذى قد تريده لتخليص الآستانة من خطر الغزو والاحتلال الأجنبى فى أدرنة والمواقع المحصنة الأخرى - نقول استطاع الاتحاديون أن يسيروا الكثير من نفوذهم السابق، وساعد قطع المفاوضات فى ٦ يناير على أن يقوى عزمهم على تدبير انقلاب يطيح بالائتلافيين، ويجمع فى أيديهم أسباب كل سلطة حتى يتمكنوا من إدارة شئون الحرب بصورة ناجحة.

ولقد اقتضى الموقف العسكرى بعد قطع المفاوضات أن يترك خليل بك - (وهو كما ذكرنا قبلا عم لأنور بك الذى كانت تتألف منه ومن زميليه طلعت بك وجمال باشا الثلاثية العسكرية ذات النفوذ والسلطة المطلقة فى جماعة الاتحاديين) - نقول اقتضى الموقف أن يترك خليل بك صاحبه بشير

السعداوى وشقيقه نورى السعداوى - وكان قد وصل أيضًا إلى الآستانة - فى ضيافته، بينما يذهب إلى ميدان القتال لتولى قيادة إحدى الفرق العسكرية. واجتمع بشير السعداوى بأنور بك مرات كثيرة، حتى يقف منه على الحالة، وكان أنور بشهادة كل الذين عرفوه من العرب وغيرهم حسسا رقيقًا متواضعًا، قال فيه الأمير شكيب أرسلان: "قلما عرف أحد أنور حتى من أشد الناس عداوة لمشربه إلا أحبه وهفا قلبه عليه. وكثيرًا ما صرح لنا أناس أنهم قبل أن يشاهدوه كانت صدورهم تتأجج عليه بغضًا وشتآنًا، فلما شهدوه وجالسوه عادت تلك النار فى صدورهم بردًا وسلامًا". وكان أنور بك أثناء الحرب الطرابلسية يتولى القيادة العامة فى برقة، بينما كان عمه خليل يعمل - كما عرفنا - فى ميدان طرابلس. ولقى عنده البشير ترحيبًا كبيرًا، ولم يمض طويل وقت، حتى كان البشير يتحدث إليه فيما يبدو له من موضوعات متصلة بنتائج الحرب إذا استؤنفت بعد قطع المفاوضة. من ذلك أن السعداوى سأله ذات مرة وهو مدعو للغذاء معه. ماذا يكون المصير لو أن حكومات البلقان استطاعت - لا قدر الله - الدخول إلى استانبول؟ وما الذى ينتوى عندئذ فعله أنور بك وإخوانه؟ فكان جواب أنور سريعًا وحاسمًا، قال: ليلس هناك ما يمعنا من التخلص حينئذ من استنابول التى صارت كالمستنقع، يغوص فيه المرء بسبب دسائس الأجانب التى أحالت المكان إلى بؤرة فساد. فلو أننا طردنا منها لذهبنا إلى جزيرة العرب، فنبايع بالخلافة أميرًا عربيًا، ونعود إلى الحال التى كان عليها الإسلام أيام النبى الكريم ﷺ من حيث التمسك بأحكام القرآن والعمل بها، ومن المعروف عن أنور (باشا) أنه لعواطفه العربية الإسلامية كان محبوبًا من العرب والمسلمين، وقد عرف عنه ذلك بشير السعداوى فى طرابلس الغرب (ليبيا)، وكان طبيعيًا أن يزيد حديث أنور عن "الخليفة العربى" بشير السعداوى تعلقًا به، كما تزايد تأييد بشير السعداوى للاتحاديين، الذين إلى جانب أن من قادتهم ورؤسائهم أمثال أنور وعمه خليل، كانوا يعملون حسبما اعتقد بشير السعداوى - ولا جدال فى أن

اعتقاده كان صحيحًا - لاستنقاذ الدولة التى رأينا كيف أن بشير السعداوى، منذ صارت بلاده مهددة بالغزو الإيطالى، قد عقد كل آماله فى تحرير الأوطان العربية والإسلامية المنكوبة بالاستعمار على بقاء الدولةل العثمانية، التى هى موئل الخلافة الإسلامية وعلى قوتها. إن نزعة الاتحاديين الطورانية لم يكن يقدر أن يلمس آثارها العرب فى طرابلس الغرب، حيث كان الشغل الشاغل "لرجال الدولة" هو دفع العدوان الإيطالى ولدى طلعت، قطب الاتحاديين الآخر لقى بشير السعداوى نفس الترحيب الذى لقيه عند أنور، فقد اصطحبه خليل إلى طلعت حتى يعرفه به، وقدم البشير وهو يصفه بأنه من "إخوان الجهاد" ومن رجال البلاد الذين جاهدوا وأبلوا فى قتال العدو بلاء حسنًا. وكاد يسترسل خليل بك فى أكثر مما ذكر، لولا أن طلعت بادر فأوقفه قائلا: لماذا يا خليل تكثر الكلام؟ ثم استطرد وقد التفت إلى بشير السعداوى يخاطبه: أنتم لستم ضيوفًا على خليل، وإنما أنتم ضيوف الدولة العثمانية. فكان لهذا الترحيب أبلغ الأثر فى نفس بشير السعداوى، وفى نفس كل المجاهدين العرب فى استانبول، عندما ذاع خبر هذه المقابلة. وفى هذه الأيام تردد بشير السعداوى على الشيخ عبد العزيز جاويش، وكان الشيخ محبوبًا من الاتحاديين، ويصدر بالآستانة (مجلة الهداية).

ولكن الجو فى الآستانة كان ينذر بقرب هبوب العاصفة، ذلك أن الاتحاديين خشوا أن تقبل الحكومة ومجلس المبعوثان تحت ضغط الدول تسليم أدرنة، وكانت وزارة كامل باشا التى قبلت التسليم مبمقدونيا والمقاطعات الألبانية على وشك الرضاء بالتنازل عن أدرنة كذلك تجنبًا للحرب، بعد أن منى الأتراك فيها بخسائر كبيرة. فكان حينئذٍ أن قام الاتحاديون بانقلاب ٢٣ يناير ١٩١٣، الذى أطاح بوزارة كامل باشا أو (بالوزارة العظمى)، وأعطى الاتحاديين الحكم.

ويقول بشير السعداوى الذى شعد هذا الانقلاب، وكان يعرف الرجال

الذين قاموا به، يصف ما حدث: إن الاتحاديين عندما صح عزمهم على القيام بهذا الانقلاب، أحضروا خليل بك من الميدان ليشترك فى تدابيرهم، لأنه وابن أخيه أنور وطلعت كانوا من أقطاب الاتحاديين. ففى صباح اليوم المحدد للانقلاب، (الأحد ٢٣ يناير) طلب خليل من بشير السعداوى أن يكون هو وأخوه نورى السعداوى بالمقهى المواجه لمبنى الباب العالى، حيث ينتظر وقوع الانقلاب هذا اليوم حوالى الظهر، وبالفعل جلس بشير ومعه نورى السعداوى يرقبان الحوادث. ويصف بشير السعداوى ما حدث فيقول: "ولما حان الموعد. رأينا أنور بك وقد حضر وهو يخشى نحو الباب العالى، مكان الصدارة العظمة أو رئاسة الوزارة فلما وصل إلى الباب كان قد اجتمع حوله الثلاثمائة من الرجال، وحاول الحراس أن يمنعوه من الدخول، ولكن (أنور) اقتحم الباب. وما أن دخل هو وجماعته إلى المبنى حتى سمعنا ضجة وصياحًا ودوى فى أثناء ذلك طلق نارى واحد. وكان معروفًا أن بداخل المبنى الصدر الأعظم كامل باشا ووزير الحربية ناظم باشا. وسرعان ما شهدنا خليل بك وطلعت بك يركضان نحو الباب العالى وهما شاهران (مسدسيهما)؛ ودخلا إلى المبنى. ثم خرج الصدر الأعظم ومعه أنور وقد استقلا سيارة الأول يقصدان إلى (السراى) حيث أرغم الصدر الأعظم على الاستقالة، ثم تبين أن الطلق النارى سمعناه قد أصاب مقتلا من وزير الحربية ناظم باشا. وعلى أثر هذه الحوادث تشكلت وزارة جديدة من الاتحاديين برئاسة محمود شوكت باشا؛ فتولى طلعت بك وزارة الداخلية، وتولى الخارجية، البرنس سعيد حليم باشا (المصرى). بينما تسلم أنور قيادة الجيش، ومعه خليل بك وآخرون من القواد الذين صح عزمهم على مواصلة القتال.

وقد نجم عن هذه الحوادث أن طالت إقامة بشير السعداوى بعض الوقت فى دار الخلافة وكانت الأيام التالية التى قضاها بشير فى استانبول مُليئة كذلك بالحوادث. فإن وزارة الاتحاديين الجديدة، لم تستطع تدارك الموقف سريعًا فى جبهة القتال، فقد استؤنفت الحرب فى ٣ فبراير ١٩١٣؛ وسقطت المواقع

المحصنة الثلاثة فى يد العدو؛ فاستولى اليونانيون على يانينا فى ٦ مارس، والبلغار على أدرنة فى ٢٦ مارس بعد أن دافع عنها الأتراك دفاعًا مجيداً والجبل الأسود على (سكوتارى) فى ٢٣ إبريل. وكان لسقوط أدرنة على وجه الخصوص رنة أسى عميق، ولا يزال يذكر بشير السعداوى كيف قابل الأتراك نبأ سقوطها فى وجوم وكان حزنهم عظميًا. وقد قصد السعداوى ساعة وصول النبأ إلى دار (مجلة الهداية)، فوجد الشيخ عبد العزيز جاويش يبكى بكاء حاراً، فى عويل وصياح، ومن حوله أتراك وعرب يندبون حظ الدولة العاثر، ويبكون مصابها الفادح. وكان حسن ظافر، ابن الشيخ ظافر المدنى يقول وقد شهد شدة تأثر عبد العزيز جاويش وسائر العرب الموجودين: حقًا إذا كان هؤلاء، وهم عرب - أى ليسوا أتراكًا - يتأثرون كل هذا التأثير لما أصاب الدولة، فماذا فى قدرتنا مما يجب علينا نحن أن نفعله، وقد عشنا على أرض تركيا وتحت سمائها، وأكلنا من ثمرها وخيرها: وقد نشرت (مجلة الهداية) قصيدة فى سقوط أدرنة لشاعر العراق معروف الرصافى (سنة ١٨٧٥ - ١٩٤٥) يذكر بشير السعداوى أكثر أبياتها، ومنها:

أدرنة مهلا فإن الظبى ستـرعى لك العهد والموثقا

وداعًا لمغناك زاهى الربا وداعًا ولكن إلى الملتقى

ومنها: فسوف على الرغم من أوروبا نقوم لها فيلقًا فيلقًا

فتبكى هزاهزنا المغربا وتضحك أسيافنا المشرقا

وعلى أثر هذه الهزائم، لم تجد الوزارة الاتحادية مناصًا من قبول الصلح، فتم ذلك فى معاهدة لندن فى ٣٠ مايو سنة ١٩١٣. وبمقتضى هذا الصلح نزلت تركيا عن الأراضى الواقعة غرب خط يمتد من (ميديا) Midia على البحر الأسود إلى (إينوس) Enos على بحر إيجه. ومعنى هذا أن تركيا قد فقدت كل أملاكها فى البلقان، ولم يبق فى حوزتها غير القسطنطينية وبعض الأرض حولها بالقدر الذى يكفى لحمايتها.

فكان وقع هذه الهزيمة فى النفوس عظيمًا، لدرجة أن المعارضين من الأتراك (لجمعية الاتحاد والترقى) - أى للاتحاديين - سرعان ما أرادوا انتهاز فرصة التذمر الذى انتشر بسبب هذا الصلح لتدبير انقلاب يتخلصون به منهم، ففعلوا ذلك يوم ٢ يونيه ١٩١٣، ولكنهم فشلوا. وأسفر الانقلاب عن قتل محمود شوكت باشا. وكان السعداوى وقت حدوث هذه الحركة يزور فى إدارة الأمن العام (المحاسبجى) فريد بك بابان زاده، فبلغهم أن الصدر الأعظم محمود شوكت باشا قد لقى حتفه أمام وزارة الحربية على يد جماعة من أنصار الصدر السابق كامل باشا.

على أن هذا الحادث لم يفت فى عضد الاتحاديين الذين تزايدت سيطرتهم على شئون الدولة بعد ذلك. فتألفت وزارة اتحادية جديدة برئاسة سيعد باشا، وقد استطاعت هذه الوزارة بسبب الخلافات التى دبت بين الحلفاء البلقانيين على تقسيم الأملاك التى ارتد عنها الأتراك بمقتضى معاهدة لندن السالفة الذكر، فقامت الحرب بين بلغاريا من جانب، والصرب واليونان ورومانيا من جانب آخر، وانهزمت بلغاريا - نقول إن العثمانيين بقيادة أنور بك استطاعوا فى عهد هذه الوزارة أن يستردوا أراضيهم فى شرق ووسط (تراقيا) بما فيها (أدرنة) التى ظلت فى حوزتهم عند عقد الصلح فى بخارست فى ١٠ أغسطس ١٩١٣ وهو الصلح الذى اختتمت به الحرب البلقانية.

ولكن قبل أغسطس ١٩١٣ كان بشير السعداوى وأخوه نورى السعداوى قد غادرا كلاهما الآستانة واستقروا فى عملهما الجديد: نورى موظفًا (بالمحاسبة الخصوصية) فى بيروت، وبشير السعداوى مديراً للتحريرات أو وكيل متصرف فى (ريزه) على البحر الأسود فى إقليم لازستان التابع لولاية طرابزون.

٢ - مدير تحريرات فى ريزه:

كان العمل فى ريزه، تجربة جديدة لبشير السعداوى من عدة وجوه. فقد

انتقل الآن للعيش فى إقليم يختلف من حيث أحواله الجغرافية عن موطنه الذى نشأ وترعرع فيه بطرابلس الغرب. فالبلدة تقع على البحر الأسود، وهى مرفأ، فتشبه من هذه الناحية بلدة الخمس، ولكن كانت تحيط بها الجبال والأحراش والغابات. وذات عيون كثيرة تنفجر منها المياه وأمطارها غزيرة، ولا يزال بشير السعداوى يذكر مناظرها الطبيعية الجميلة التى يقول إنها تشبه المناظر الطبيعية فى جبل لبنان. ويبلغ عدد سكان ريزه حوالى الخمسة عشر ألفًا، وأهلها من اللاز، وهم جنس قريب للترك، وإن لم يكن منهم، مثلهم فى ذلك مثل الجراكسة، والجورجيين، ويدينون بالإسلام، ويحترمون العرب احترامًا كبيرًا لاعقادهم أن كل عربى لابد أن يكون من نسل الرسول ﷺ. وكان منصب بشير السعداوى كمدير تحريرات، إلى جانب أنه يشير إلى القدرة على الكتابة والتحرير مما يزيد فى شأن شاغل هذا المنصب عند الأهلين وشيوخهم، ويجعل ممكنًا أن ينفرد بشير السعداوى بكل سلطة فعلية فى ريزه، وأن يتحمل تبعًا لذلك مسئولية الحكم كاملة فى هذا الإقليم. فمدير التحريرات بجانب أنه رئيس قلم)، فقد كان وكيلا للمتصرف فى الوقت نفسه، ويتولى بهذه الصفة شئون الإدارة والأمن فى جهته، وقد لا يكفى هذان وحدهما لأن يصبح بشير صاحب السلطة فى ريزه، ولكن عوامل عديدة أخرى تضافرت على أن يكون الأمر كذلك. منها أن هذا البلد كان لا يقيم به كل متصرف يتعين له طويلا، حتى صار مشهوراً عن ريزه أنها المكان الذى يكثر تغيير متصرفيه. فبلغ عدد المتصرفين الذين عينتهم الحكومة فى مدة سنتين - ومنهما سنة تقريبًا قضاها بشير السعداوى فى ريزه - ستة.

وكان مما ساعد على أن يستقر البشير سريعًا فى (ريزه)، أن صديقه القديم متصرف الخمس الدكتور رشيد، بعد انتقاله من الخمس قد تعين متصرفًا فى (ريزه)، وذلك أثناء الحرب الطرابلسية - الإيطالية، وقد قابله البشير عند وصوله إلى استانبول، وكان الدكتور رشيد من كبار الاتحاديين، فعرف البشير بكثير من رجال الدولة الاتحاديين: وكان الدكتور رشيد يقدر

كفاءته تقديراً كبيراً، حتى إنه كان وهو بالخمس يسعى لأن يتعين بشير قائمقام في سرت، لينقذ المشروعات الواسعة التي أعدها رشيد لزرع غابة زيتون في سرت. وهو مشروع كتب عنه رشيد فعلا إلى استانبول وقتئذٍ ضمن مشروعات أخرى كانت تهدف للنهوض بالزراعة في هذه المنطقة من طرابلس الغرب عن طريق الإكثار من زرع شجر الزيتون والتوت - وهذا الأخير لتربية دود القز - وقرأ رشيد في الخمس محاضرة في هذا الموضوع، قام بشير السعداوي بتلاوتها مترجمة إلى اللغة العربية. فلما وصل السعداوي إلى استنابول، أخذ الدكتور رشيد على عاتقه أن يجد منصبًا إداريًا لائقًا به. فكان أن تعين البشير مديراً للتحريرات في ريزه، وظل الدكتور رشيد يبحث عن بشير مدة أسبوع ليبلغة أمر التعيين، وكان البشير مشغولا وقتئذٍ في استانبول يتتبع تلك الأحداث السياسية والانقلابات الحكومية التي ذكرناها. وبمجرد أن تعين البشير بادر الدكتور رشيد بالكتابة إلى أعيان (ريزه) يخبرهم بحضور السعداوي إليهم مديراً للتحريرات، ويعرفهم به؛ ولقد استمر الدكتور رشيد بعد ذلكل وثيق الصلة ببشير، يكتب إليه كل أسبوع تقريبًا من استانبول ليقول إنه قريب بجانبه ومستعد دائمًا لخدمته في كل ما يطلب منه. وكان ممن كتب إليهم الدكتور رشيد لاستقبال بشير السعداوي وتوفير سبل الراحة له في عمله الجديد، حافظ خلوصي، وهو محام من (ريزه)، وصديق للدكتور رشيد، ورفيق الدراسة لأستاذ بشير السعداوي القديم في الخمس، حقي شناس. ومنذ أن وفد السعداوي إلى (ريزه) تسلم حافظ خلوصي شئونه، فهو الذي يهيء له مكان إقامته؛ ويقبض له مرتبه، وينفق عليه منه؛ فلا يجد البشير ما يشغله عن مهام منصبه، أو يصرفه عن القراءة والاطلاع والدرس أثناء وجوده في (ريزه) - كما سنرى - وقد كتب حقي شناس يهنئ "تلميذه" السابق "بنجاحه" حتى صار رئيسًا للكتاب والمحررين، ومسئولا عن شئون الحكم في (ريزه)، وكان حقي شناس وقتئذٍ قد صار مديراً لدار المعلمين في ولاية (وان).

وكان حافظ خلوصى مولعًا بتكلم اللغة العربية؛ قرأى فى وجود بشير خير فرصة للتقدم فى دراستها، ووقع اختيار خلوصى على (مقامات الحريرى) لقراءتها؛ وكان البشير يحفظ وهو بطرابلس عددًا من هذه المقامات، وأراد حافظ خلوصى - الآن - أن ينقل المقامات إلى اللغة التركية، فصار يتردد على البشير كل ليلة تقريبًا، فيسهر الاثنان فى ترجمة المقامات حتى إنهما نقلا اثنين وثلاثينى منها إلى اللغة التركية، وعدد المقامات كما هو معروف خمسون مقامة.

وبسبب العمل الرسمى من جهة، والبحث والدراسة من جهة أخرى، لم يشعر البشير بالغربة وهو فى (ريزه)؛ وكان من أسباب اطمئنانه إلى حياته الجديدة، إلى جانب حفاوة أهل البلاد به وحبهم له، وعناية أصدقائه به، أمثال رشيد وحقى شناس وحافظ خلوصى أن رفيقه فى رحلته إلى استانبول فى هجرته من طرابلس الغرب - ونعنى به خليل بك - لم يفتأ هو الآخر يعنى بالسؤال عنه، بالرغم من أنه كان قد تعين فى نفس الوقت تقريبًا فى مركز بعيد فى ولاية (وان) - أوفان - فى أرمينية، قومندانا لألاى الجندرمة بهذه الولاية. وقد كتب خليل (باشا) من (وان) فى ٥ ديسمبر ١٩١٣ كتابًا إلى بشير السعداوى بالتركية، إليك ترجمة بعض ما جاء به:

لقد تسلمت كتابكم، كما تسلمت كتابًا من الأخ نورى (السعداوى) من بيروت ومن أبى بكر (من أهل الخمس وكان مهاجرًا مع بشير ونورى السعداوى). ولا تظن بى قلة الوفاء (لتأخرى فى الكتابة)، فإنى بقدر سرعتى فى المراسلات الرسمية، أرانى مقصرًا فى المسائل الخصوصية. ولكن الحمد لله فقد اطمأننت على صحتك، ولو أنى متصور مقدار ما تقاسيه بسبب شعورك أنك فى دار الغربة. ومع ذلك فلابد أنك قد تعرفت بأناس كثيرين، مما لا أشك فى أنهم عرفوك، وعرفوا قدرك، وصرت مطمئنًا لهم . . ولكنى أحمد الله أنك لست معى هنا فى (وان) التى يبلغ ارتفاعها عن سطح البحر حوالى

ثلاثة آلاف متر، وأما الثلج الذى يغكى الأرض فسمكه متران أو ثلاثة أمتار، وهكذا فلو أنك كنت معى هنا لقلت: ذلك غضب الله! يا بشير، لقد صرت لا أستطيع تحمل البرد بعد أن أصبحت غريبًا (واعتاد جسمى على المناخ المعتدل). ولقد طلبت أن أعود إلى استانبول، ولكنى لا أريد مغادرة البلاد حتى لا يقولوا: إنى هربت من المشاكل والمتاعب (أما إذا عدت إلى استانبول) فسأكتب إليك عند وصولى إليها، وعنوانى بها مهاجر من طرابلس من بلدة الخمس. وختامًا أبلغ سلامى نورى وأبا بكر. وهل لا زلت تغنى أغنيات فزانية فى لازستان؟

والحقيقة أن بشير السعداوى لم يشعر بالوحشة وهو فى ريزه، أول مكان استقر به طويلا بعد هجرته من وطنه واغترابه، وهو يعيش بمفرده فى المنزل الذى اختراه لسكناه، ويسهر حافظ خلوصى على راحته. وكان من أسباب انتقاء الشعور بالوحشة، أن الناس فى ريزه - كما كان ينتظر خليل باشا - قد صاروا يعرفون قدره، فقد استرعى تدينه، وانكبابه على القراءة، ونوع الحياة الجدية التى عاشها فى ريزه، انتباه شيوخها وكبار علمائها إليه، بينما أقبل القوم عليه يتقربون إليه، ويحاولون أن "يتبركوا به" لأنه عربى وحسب اعتقادهم - كما ذكرنا - لابد لذلك أن يكون من نسل النبى محمد ﷺ. وقد ساعد البشير على الدرس أن البيت الذى سكن به كان يملكه "مفتى" من أهل البلاد، توفى من مدة، وترك غرفتين مملوءتين بكتب الفقه والتفسير وعلوم الدين. فاستطاع أن يقرأ ما شاء القراءة من هذه المكتبة الكبيرة.

ويقول بشير السعداوى: إن الحافز الذى دفعه إلى القراءة فى تفسير الكتاب الكريم خصوصًا، أن العادة قد جرت فى (ريزه) بعد صلاة العصر فى كل يوم جمعة، أن يلقى مفتى البلدة بالجامع درسًا فى التفسير، يحضره المصلون، فحدث أن تلفت المفتى وهو يلقى درسه ذات مرة إلى حيث يجلس البشير مستمعًا، وصار يتكلم عن العرب الذين اختصهم الله سبحانه وتعالى

بفضله، وميزهم عن غيرهم من الشعوب، عندما أنزل القرآن الكريم بلسانهم. ثم استطرد الشيخ يقول: ويحضر الآن بحلقة الدرس رجل عربى، هو مدير للتحريرات و "التحريرات" بطبيعة الحال ليست دراسة دينية وإنما هى دراسة يتلقاها المتعلمون فى مدارس مدنية، ومع ذلك فهو بحكم أنه عربى، فلابد أنه يفهم القرآن ويتدبر معانيه، هكذا بالبداهة دون جهد أو تعب، بينما يجد وينصب الواحد منا سنين طويلة حتى يفهم هذه المعانى، وقد لا يوافق سوى قليلين منا فى بلوغ ذلك. وإنى أريد أن أسأل هذا الرجل شيئًا فيما ندرسه الآن، تروا من جوابه مقدار ما خص المولى به العرب من مزية فهم القرآن الذى نزل بلسانهم. ما تفسيرك لقوله تعالى: "جنات تجرى من تحتها الأنهار، يحلون فيها من أساور من ذهب، صدق الله العظيم.

فأخذ البشير يفسر معنى الآية بالتركية، ولكن الشيخ المفتى سأله: هل هذه الأساور وهذا النعيم للرجال وللنساء على السواء؟ فأجاب البشير بأن معنى الآية مطلق. فقال المفتى: وكيف يجوز للرجال أن يتزينوا بالذهب وهذا حرام! فأجاب البشير: إن ذلك حرام فى الدنيا، أما فى الآخرة، فقد قال الله تعالى: "نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون". فعجل المفتى من استشهاد بشير السعداوى بالقرآن الكريم فى تفسير آية، وقال: لقد بقيت أدرس خمس عشرة سنة ولا أستطيع فعل ذلك. وما حصل إنما هو دليل على صحة ما أقول عن قدرة العربى على تفسير آى الذكر الحكيم.

وثابر بشير السعداوى على دراسة التفسير، حتى لا تضيع فى قدرته ثقة المفتى، الذى نشأت بينه وبين البشير صداقة كبيرة. وكانت المدرسة التى يلقى فيها الشيخ دروسه قريبة من منزل البشير فصار يتردد عليه كثيراً. وذات مرة أبلغه أنه اليوم يلقى درسًا فى البلاغة وأنه أخبر تلاميذه أن درسهم فى البلاغة سوف يكون جواب البشير على رسالة من الشيخ له، سطرها فى ورقة دفعها

إليه، فقأ بها البشير: "بعد التحية - يا شيخ العرب أراك دائمًا مغمومًا تفكر فى غربتك، فلا هونت على نفسك الأمر". فكتب البشير جوابه "يا شيخ الترك: إنى رجل رضعت من ثدى النوائب، وربيت فى حجر النوائب. لا إقبال يغرنى، ولا إدبار يزعجنى" فجعل المفتى من هذا الجواب درسًا لطلابه فى البلاغة.

وكان فى (ريزه) أن قرأ بشير السعداوى كتاب (جورجى زيدان) المشهور فى (تاريخ التمدن الإسلامى). وقد قرأه البشير مترجمًا إلى اللغة التركية. ولذلك قصة، فقد حدث أن بعث إليه رئيس الكتاب وكان عربى الأصر ومن حلب يدعى زكى مغامز برسالة يسأله فيها عن ما إذا كان عربيًا، لأنه لاحظ فى أحد كتب البشير المحررة بالتركية أنه يستخدم تعبير "واسع وشاسع" الذى لا يعرف أن يستخدمه إلا عربى. وطلب إليه أن يعمله من أى بلد هو، فأجابه بشير السعداوى أنه حقيقة عربى وأن أصله من طرابلس الغرب. فأهداه زكى مغامز كتاب جورجى زيدان بالتركية. وقد حبب هذا الكتاب بشير السعداوى فى التاريخ الإسلامى، واسترعى نظره أن كاتب (التاريخ) قد عرف كيف يقيم الحجة بأسلوب علمى رصين على صدق صاحب الرسالة، بالرغم من أنه مسيحى وقد لا ينتظر منه أن يكون متعمقًا فى هذه الدراسة. وأعجب البشير بالمنهج الذى اتبعه جورجى زيدان فى عرض تاريخ الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين لإظهار الميزات التى كانت تميز كل حكومة من حكوماتهم عن غيرها. فالراشدون حكومتهم زاهدة فى الدنيا وتحصر على نشر الدعوة للإسلام، والأمويين حكومتهم تعمل لتأسيس الدولة وتريد الفتوحات الواسعة، والعباسيون يتميز عهدهم بالهتمام بالعلوم والترجمة، وهكذا. وكان أول ما عنى به بشير السعداوى عند عودته إلى استانبول أن

يقتنى (تاريخ التمدن الإسلامى) باللغة التى صـدر أصلابها. وقد ظل يحتفظ من ذلك الحين بهذا الكتاب إلى جانبه، يهدى منه نسخًا إلى أصدقائه، ويعاود قراءته من وقت لآخر.

وهكذا كان البشير يقضى أوقـاتًا طيبة ونافعة فى (ريزه). وكلما طال به المقام تزايد تـعلق أهلها وشيـوخهم به. ولقـد ظهر أثر هذا التعلـق به عندما جرت الانتخابات لمجلس النواب العثمانى (المبعوثان)، فى الشهور الأولى من العـام التـالى (١٩١٤). وقـد حرص الاتحـاديون على أن يـنجح زجلهم فى (ريزه)؛ وكانت (الهـيئة التفـتيشيـة) لحزب الاتحاديين فى (ريزه) قد اخـتارت مرشـحًا اسمه (ضـيامنلا)، لقى تأييـدًا من بعض المغرضين الذين اسـتطاعوا التأثير على (باشكـاتب) المحكمة الشرعية فى البلدة، فـراح هو الآخر وأخوه يؤيدان (ضيـامنلا) وتخلى الجمـيع عن الرجل الذى يريده الاتحاديون واسـمه (سودى)؛ وهو ممن نالوا ثقـتهم. ولقد تبودلت حـول هذه المسألة الكتب بين بشير السـعداوى بوصفه مـدير التحريرات ووكيل المتـصرف فى (ريزه)، وبين الدكتور رشيد صديق البشير والذى ذكرنا أنه كان من أقطاب الاتحاديين. وفى أحد هذه الكتب، يكتب رشـيد من مقاطعـة باليكسرى حيث كان واليًـا بها، وبالقرب من استانبول، فى ٢٧ مارس ١٩١٤، إلى بشير السعداوى، يقول ما ترجمته من التركية ما يأتى:

لقد أخـذت كتـابك، وكذلك كتـاب مأمور الزراعـة (فى ريزه) حمـيد أفندى. لقـد جرت أمـور فى الانتـخابات المنتظرة لمجـلس المبعـوثان لم تكن لائقة. وأنا لا أدرى إلى مـتى تظل هذه النكبات التى تنزل بنا عـاجزة عن أن تخلق فينا وعيًا وإدراكًا كالصالح العام؟ وهل يصح أن تغرز بنا المصالح الذاتية

القليلة القيمة ضد المصلحة الكبرى؟ لقد رشحت (الهيئة التفتيشية) لحزب الاتحاد (فى ريزه) شخصًا، بينما رشح المركز العام للحزب شخصًا آخر، والهيئة التفتيشية تدعى أنها إنما رشحت رجلا من الاتحاديين، وهذا غير صحيح. وأنت تعلم أن (قازنجى) وحزبه يساعدون (ضيامنلا)، مع أن هناك رجلا اسمه (سودى) من خيرة الشباب، من ذوى السيرة الحسنة والمعروفين بالاستقامة والشرف، إلى جانب أنه من الفدائيين. فلماذا لم يقع عليه هو اختيار (الهيئة التفتيشية) لترشيحه للانتخابات عن الاتحاديين. طبعًا ذلك لا يكون، لأن (ضامنلا) معروف فى بلاد اللاز أنه لا يعبأ إلا بتحقيق المنافع الذاتية، ولا يسعى إلا فى نشر الفساد دائمًا. ويقولون إن (باشكاتب) المحكمة الشرعية لا يفهم حقيقة (ضامنلا). ولكن الباشكاتب وأخاه أناس طيبون، وقد تنجح جماعة (ضيامنلا) فى التأثير عليهما، فأرجوك والآمال منعقدة على همتك المعروفة، أن تبذل قصارى جهدك فى هذه المسألة حتى يجد (سودى) فرصته فى النجاح، ولك شكرى سلفًا. والمتصرف الموجود عندكم - (متصرف مديرية ريزه) قد رشح لنقله متصرفًا فى مكان آخر، وتلك هى وجهة نظر الحكومة. وإنى آسف لأن المتصرفين الذين يعينون فى (ريزه) لا يمكثون فيها طويلا، وينقلون منها بسرعة، حتى إنه قد تغير فى مدة سنتين ستة متصرفين، وإنى لا أعرف المتصرف الجديد الذى عين لكم إلا قليلا لأنه ليس من رجالنا، بل ويروى عنه أنه عندما تغيرت وزارة الاتحاديين السابقة لم يلبث أن غير مسلكه تجاهنا وصار يهاجم الاتحاديين. ولكن من المحتمل أن يكون الآن قد ندم على ما فعل، وماذا نصنع نحن، وذلكل هو نوع الرجال الذين نجدهم؟ أبلغ سلامى إلى مأمور الزراعة وأخبره أنى كتبت للنظارة لنقله إلا ولاية طرابزون (أى إلى مركز الولاية). وأبلغ سلامى كذلك إلى أخيك

نورى، وهل تصلكم رسائل بانتظام من الأهل والإخوان أم لا؟ أتمنى لك الصحة والعافية، وأختتم كتابى بسؤال المولى أن يديم المودة بيننا".

واقتنع بشير السعداوى بأن (سودى) يفضل حقيقة (ضيامنلا)، وأيده شيوخ (ريزه) وأهلها، فانكشف أمر (ضيامنلا) ونجح (سودى) فى الانتخابات. واغتبط الدكتور رشيد لهذه النتيجة، فأبرق يشكر بشيراً، دون مسوغ، لأن البشير لم يفعل إلا ما اعتقد هو وأهل (ريزه) أنه حق وعدل.

ولكن مقام البشير بعد هذه الانتحابات لم يطل فى (ريزه). فقد وقع حادث غريب، كاد يسبب أزمة فى العلاقات بين روسيا وتركيا، فى الوقت الذى كان أفق السياسة الدولية فى أوروبا ملبداً بالغيوم، فى الفترة التى سبقت مباشرة قتل ولى عهد النمسا والمجر الأرشيدوق فرنسوا فرديننذ، واندلاع نار الحرب العالمية (أو العظمى) الأولى.

فقد حدث أن فر ثلاثة من الروس الصوريين المتآمرين على حياة قيصر الروسيا نيقولا الثانى إلى إقليم الحدود، ودخلوا (ريزه) أقرب البلدان التركية إلى الحدود الروسية عند باطوم على البحر الأسود، كلاجئين سياسيين. ولكن القنصل الروسى فى (ريزه) سرعان ما طلب من بشير السعداوى، وكيل المتصرف بها أن يلقى القبض على هؤلاء اللاجئين الثلاثة، لأنهم مجرمون عاديون، وليسوا سياسيين، وأن يظلوا فى الحبس ريثما تتم المخابرة بين حكومته والدولة بشأن تسليمهم إلى اقنصلية الروسية حتى يحاكموا فى روسيا. ولما كان نطلب القنصل الروسى مقتنعًا مع القواعد المرعية، فقد ألقى بشير السعداوى القبض على الروس الثلاثة، فى انتظار ما تسفر عنه المخابرات بين روسيا والباب العالى بشأنهم.

ولكن لم تلبث أن وصلت البشير برقية بالشفرة من المركز العام لجمعية الاتحاد والترقى فى استانبول، فحواها أن يدبر البشير طريقة يمكن بها إطلاق سراح هؤلاء الثلاثة وإتاحة الفرصة لهم كى "يهربوا" فى أمان من ريزه. وكان الاتحاديون - كما عرفنا - أصحاب الحل والعقد فى الدولة، فاعتقد بشير السعداوى أن ذلك أمر واجب عليه طاعته. واستطاع بالاتفاق مع قائد الجندرمة "إخراجهم" من البلاد. ولكن ما أن عرفت روسيا "يهرب" الثلاثة حتى قامت قيامتها، وشعرت الحكومة فى استانبول بالحرج، وكانت لا تريد أن يكون هذا الحادث سببًا فى تأزم العلاقات بينها وبين روسيا. وأرادت معاقبة المسئولين عن "قرار" الروس الثلاثة ترضيه لحكومة روسيا. فجاء والى طرابزون سامح رفعت بك لسؤال بشير السعداوى فى هذا الحادث - وكانت ريزه كما سبق أن ذكرنا من الأقاليم التابعة لولاية طرابزون وظن البشير أن مسئوليته فى الحادث سوف تنتهى قطعًا عندما يعلم سامح رفعت أن أمرًا قد صدر من جماعة الاتحاديين "بتهريبهم". ولكن سامح رفعت الذى ساءه أن يصدر الأمر إلى بشير بدلا منه نفسه وهو رئيسه، أخذ منه الغضب كل مأخذ، وأنذر البشير أن إطاعته أمر المركز العام لا ينجيه بحال من المسئولية. فأجاب البشير على هذا التهديد بأنه يعرف كيف يتحمل المسئولية، واستبقى فى حوزته البرقية التى جاءته من جمعية الاتحاد والترقى، وقال إنه سوف يبذل قصارى جهده للقبض على الفارين الثلاثة.

ولم تنته المسألة عند هذا الحد. فإنه لم تمر أيام قلائل حتى حضرت إلى ميناء (ريزه) ثلاث قطع بحرية من الأسطول الروسى فى البحر الأسود مؤلفه من دراعة، وزورقين من زوارق المدفعية الصغيرة، كان القصد من مجيئها تهديد (ريزه) ومدير تحريراتها (أو وكيل متصرفها) الذى اعتبره الروس مسئولا عن فرار الإرهابيين الثلاثة. فبادر بشير السعداوى بإبلاغ القنصل الروسى أن وجود هذا الأسطول يتنافى مع علاقات المودة والصداقة القائمة بين الدولة وروسيا، وبناء عليه فهو يريد أن يبلغه أن أحدًا من ضباط هذا الأسطول أو

طاقمه لا يستطيع النزول إلى البر إلا بإذن منه (أى من بشير السعداوى) وبادر البشير فى الوقت نفسه بإبلاغ الحكومة فى استانبول بما حدث. وبقوا أسبوعاً دون أن يأتوا بحركة، حتى خطر لهم أن يختبروا مقدار تمسك البشير بحقوقه بوصفه الحاكم المسئول فى الميناء الذى يربض فى مياهه أسطولهم. فأراد بعض الضباط النزول إلى البر لزيارة القنصل الروسى. ولكن بشيراً منعهم. وعندئذٍ جاءه القنصل يبلغه أن (الأميرال) الروسى يريد زيارته. فوافق بشير السعداوى على استقباله إذا أراد زيارته، حتى إذا انتهى من واجب زيارة "الحكومة" أولا صار له أن يزور - إذا شاء - القنصلية الروسية. وبالفعل حضر أمير البحر الروسى إلى مقر الحكومة للزيارة، فاستقبله البشير استقبالا رسميًا. ثم أراد بشير السعداوى أن يقوم برد الزيارة حسب التقاليد الدبلوماسية المعمول بها، فأبلغه رغبته، وقبل (الأميرال) الزيارة. فركب بشير السعداوى زورقًا رسميًا من زوارق بوليس السواحل، وقصد إلى سفينة (الأميرال) وقد اصطحب معه قائد الجندرمة، ومدير البوليس، وقائد الحامية العسكرية النظامية فى ريزه. ولكنه لاحظ عند صعودهم إلى ظهر الدراعة أن المدافع لم تطلق تحية لاستقبالهم حسب الأصول. ففى اللحظة التى كان يهم فيها (الأميرال) باستقبالهم، أدار البشير ظهره راجعًا على عقبيه يتبعه زملاؤه فنزل من الدراعة واستقبل الزورق عائدًا، وبمجرد وصوله إلى مركز الحكومة أرسل يحتج على هذا التصرف من جانب الروس. فلما كان اليوم التالى، بعث (الأميرال) يعتذر عما حدث ويرجو أن يزوره البشير كى يقوم بالمراسم حسب العادة. فأدى البشير الزيارة ولكن لم تبرح القطع الروسية (ريزه).

ولقد زاد هذا الحادث من غضب الروس على وكيل متصرف (ريزه). فلم يلبث أن فوجئ عثمان باشا. فقد حضر المشير إلى (ريزه) فى باخرة خاصة، وتعمد عند وصوله أن يقصد إلى الثكنة العسكرية ويطلب من بشير السعداوى أن يأتى لمقابلته هناك. وكان المنتظر حسب التقاليد المرعية، أن يبدأ المشير بزيارة وكيل المتصرف (أو المتصرف إذا وجد) بعتبار أنه يمثل الحكومة

فى المنطقة، ولكن بشير السعداوى رأى من الحكمة أن يترك جانبًا هذه المسألة، على أساس أن المشير - وهو صاحب المكانة الرفيعة بين رجال الدولة وموظفى الحكومة - خير من يدرك الأصول المتبعة، فإذا تراءى له أن يفعل خلاف ما يعتقد بشير السعداوى أن الواجب يقتضيه أن يفعله، فليس من حقه، وهو - على كل حال - جديد على البلاد ولم يمض طويل وقت على هجرته من ليبيا، أن يلفت نظره إلى القواعد والأصول المتبعة. ومع ذلك فإن الحرص على كرامة المنصب لم يلبث أن جعل البشير بمجرد وصوله إليه فى الثكنة العسكرية، وقبل أن يأخذ مجلسه معه، يقول للمشير: إن الأصول توجب عليه أن يشرف مركز الحكومة بزيارته أولا، حتى يأتى (وكيل المتصرف) لزيارته بعدئذ. وعلى ذلك فإنه يرجو من المشير أن يسمح له بالاحتجاج على إغفال هذه التقاليد. ولم يغضب المشير لهذا الاحتجاج، بل وضع يده على كتف بشير السعدواى؛ فأجابه بقوله: يا ابنى اجلس الآن، فنحن لسنا فى باب التشريفات، وإنما يشغلنا شىء أهم وأخطر من ذلك. واتضح أن طبال عثمان باشا إنما حضر للتحقيق فى مسألة الروس الثلاثة الذين سمح لهم "بالهرب" من ريزه. وكان غرض المشير أن يحقق مع بشير السعداوى رسميًا فى هذه "القضية" لأن روسيا تهدد الدولة بسبب فرار المسجونين الثلاثة. ولذلك فقد حضر المشير ليتلقى جواب السعداوى على عدد من الأسئلة يريد أن يوجهها إليه.

وأدرك بشير السعداوى أن المقصود من التحقيق إدانته، واعتباره مسئولا عن "فرار" المسجونين الروس، فتعاقبه الدولة إرضاء للحكومة الروسية وتنتهى المسألة. فعارض بشير السعداوى فى إجراء تحقيق معه، لأن مركزه كوكيل متصرف، يقتضى أن يستأذن الذين يريدون التحقيق معه قبل كل شىء وزارة الداخلية فى ذلك، وقال أنه مستعد للجواب على كل سؤال يوجه إليه بصورة عامة وليس بصورة تحقيق رسمى. وحاول طبال عثمان باشا أن يخبره على قبلو التحقيق معه بدعوى أن المصلحة العليا تقتضى ذلك، ولكن دون

جدوى وأخيراً رضى الباشا أن يكتب له السعداوى مذكرة فى الموضوع رداً على استفساراته وبعث إليه السعداوى بالمذكرة قائلا: إنما أنا مرسل إليك هذه الأوراق بشأن القضية التى جئت تستفسر عنها، والرأى لكم فيما تريدون اتخاذه من إجراءات متعلقة بها.

وفى هذه الأثناء فوجئ بشير السعداوى بمجيء ويزر الداخلية طلعت (باشا) إلى ريزه فى سفينة حربية. ولكنه لم ينزل إلى البر، بل طلب لمقابلته على ظهر الباخرة طبال عثمان باشا، ثم افترقا، فواصل طلعت باشا رحلته إلى سفاستبول الميناء الروسى فى طرف شبه جزيرة القرم. وكان قيصر الروسيا يزور الأقاليم المطلة على البحر الأسود، ويوجد وقتئذ بهذه القاعدة البحرية الهامة. وأما طبال عثمان باشا فقد قفل راجعًا إلى استانبول رأسًا واستطاع طلعت باشا تسوية مسألة الروس الثلاثة مع حكومة الروسيا عند زيارته لسفاستبول وغادرت القطع الروسية أخيراً ميناء (ريزه) ولكن لم تمض أيام قلائل حتى جاءت بشير السعداوى رسالة من خليل (بك) وكان نقل من (وان) وتعين قومندانًا لمزكر استانبول، يقول له فيها: إن الحكومة قد وافقت على منحة إجازة لثلاثة شهور "بناء على طلبه" - مع العلم بأن لشيراً لم يطلب هذه الإجازة - ثم يسأل خليل بشيراً أن يقدم إلى استانبول.

واتفق خروج بشير السعداوى من (ريزه) وحضوره إلى استانبول، فى هذه "الإجازة"، مع وقوع الحادث الذى ساعد على إشعال نار الحرب العالمية (أو العظمى) الأولى فى ١٩١٤، وهو مصرع وارث عرش النمسا والمجر الأرشيدوق فرنسوا فرينند وزوجه على يد طالبين من أصل صربى، فى أحد شوارع سراجيفو عاصمة البوسنة، وذلك فى ٢٨ يونيه من السنة نفسها. فقد كان متوقعًا أن تلتقم النمسا من الصرب لمصرع الأرشيدوق فرنسوا، وأن تقف ألمانيا إلى جانب حليفتها النمسا فى الحرب المنتظرة، وأن تقف روسيا وفرنسا وانجلترا فى صف واحد ضد دولتى الوسط: النمسا وألمانيا. كما لم يكن متوقعًا أن تقف تركيا طويلا موقف الحياد.

ولقد احتاطت الدولة للأمر بالفعل. واستطاع بشير السعداوى قبل مغادرته (ريزه) أن يعرف من المخابرات السرية. أن الدولة تستعد لخوض غمار حرب عالمية مقبلة، وتأكدت لديه هذه المعلومات عندما وصلته خلال الأيام الأخيرة من أزمة الروس الثلاثة الذين عمل على تهريبهم من ريزه، رسالة مختومة من استانبول، تسلمها بوصفه مديراً للتحريرات، وجاءته معها تعليمات قاطعة بأن يفض هذه الرسالة فقط عندما يصله أمر أخير بذلك، وصار معروفًا أن هذه الرسالة تتضمن أمر التجنيد العام والتعبئة (سفر برلك) وشرع بشير السعداوى وسائر الموظفين المختصين يجمعون المعلومات عن مقدار الموجود بالبلاد من الجنود الاحتياطيين (الرديف)، والمؤن، والحيوانات، والماشية وما إلى ذلك مما يجب إحصاؤه استعدادًا لإجراء التعبئة العامة عند صدور الأمر النهائى بها.

وبلغ بشير السعداوى استانبول فى الأيام الأوى من شهر يوليو، فقابل خليل (بك) الذى شرح له الأسباب التى دعت إلى منحة "إجازة" الثلاثة الشهور، وأهمها تجنب إثارة أزمة مع روسيا. واختار البشير أن يقضى إجازته فى بيروت حيث كان يعمل أخوه نورى، وحيث كانت تقيم أسرة السعداوى بعد الهجرة من طرابلس الغرب. وأمضى بشير السعداوى فى بيروت حوالى الشهرين. ولهذه السفرة إلى بيروت - على قصرها - أهمية فى زيادة تأصل الفكرة السياسية التى تأثر بها بشير السعداوى وهو فى طرابلس الغرب، وعلى الخصوص فى المرحلة التى سبقت مباشرة الغزة الإيطالى لبلاده، واستمر متأثرًا بها حتى وصوله إلى استانبول، وذهابه إلى (ريزه)، وهى الفكرة التى سبق أن شرحناها فى موضعها، والتى ذكرنا أنها تدور حول التمسك ببقاء الدولة العثمانية موئل الخلافة الإسلامية، والعمل على تقوية الدولة بكل الوسائل، على اعتبار أن بقاء الدولة العثمانية وهى قوية ومنيعة الجانب، من شأنه أن تدفع عن ولاياتها الإسلامية، أطماع الدول الأوروبية الاستعمارية. وكان ضياع طرابلس الغرب خير دليل - فى نظر بشير السعداوى - على صحة ما

ذهب إليه، لأن ضعف الدولة وما ترتب عليه من عجز هذه الولاية "الإسلامية" عن الدفاع عن نفسها بمفردها - وإن كانت ضعف الدولة ذاته من أسباب هذا العجز الرئيسية - قد جعل سهلا على الإيطاليين أن يغزو طرابلس الغرب ويحتلوها.

ولقد لاحظ بشير السعداوى أثناء إقامته القصيرة فى استانبول بعد عودته من (ريزه) أن حركة كبيرة يؤيدها أكثر الاتحاديين تدعو إلى الطورانية قد قوى نشاطها لتغليب العنصر التركى فى الإمبراطورية العثمانية على كل العناصر الأخرى بما فى ذلك العرب. ولم تكن جديدة هذه الدعوى للطورانية، بل عرف بشير السعداوى عنها الشىء الكثير وهو بطرابلس الغرب، وكانت من الأسباب التى جعلته يريد (خلافة عربية) - على نحو ما فصلنا ذلك كله فى حينه - وقد استرعى نظر البشير عند وصوله إلى استانبول فى أوائل يناير ١٩١٤، أن دعاه الطورانية يتزايد نشاطهم بصورة خطيرة. ولكن فريقًا من الاتحاديين وقتئذ كان لا يرى فى إنشاء الإمبراطورية الطورانية سببًا للقضاء على العرب. بل يريدون أن ينال العرب استقلالا داخليًا - إذا لزم الأمر - فى داخل هذه الإمبراطورية الطورانية التى تكفل العنصر التركى المقام الأول. ومن هذا الفريق كان: خليل بك - صديق بشير السعداوى الوفى - وأنور (باشا) قطب الاتحاديين والذى قام على كتفيه انقلاب ٢٣ يناير ١٩١٣، والصدر الأعظم سعيد حليم باشا الذى تولى الوزارة بعد قتل محمود شوكت باشا فى قونية من العام نفسه، وجاويد بك وزير المالية. وقد حرص خليل بك وأنور على أن يشرحا شرحًا وافيًا سياسة الدولة لبشير السعداوى وهى السياسة التى تهدف فى نظرهما، وكما أراد وقتئذ، إلى إجابة مطالب العرب فيما يحفظ عليهم قوميتهم العربية - وكان أكبر مطمئن لبشير السعداوى من هذه الناحية تصريح أنور (باشا) له: أن الدولة الأوروبية إذا دخلت القسطنطينية، انتقل (الاتحاديون) إلى بلاد العرب، وأقاموا فى مكة المكرمة خلافة عربية. وعلاوة على ذلك فقد كان فى استانبول الشيخ عبد العزيز